

الباب الخامس

أَدَبُ النَّفْسِ



أدب النفس



اعْلَمْ أَنَّ النَّفْسَ مَجْبُودَةٌ ^(١) عَلَى شَيْمٍ مُهْمَلَةٍ، وَأَخْلَاقٍ مُرْسَلَةٍ، لَا يَسْتَعْنِي مَحْمُودَهَا عَنِ النَّأْدِيبِ، وَلَا يَكْتَفِي بِالْمُرْضِيِّ مِنْهَا عَنِ التَّهْدِيبِ؛ لِأَنَّ لِمَحْمُودِهَا أَضْدَادًا مُقَابِلَةً يَسْعِدُهَا هَوَى مُطَاعٍ وَشَهْوَةٌ غَالِيَةٌ، فَإِنَّ أَعْقَلَ تَأْدِيبِهَا تَفْوِضًا إِلَى الْعَقْلِ أَوْ تَوَكُّلاً عَلَى أَنْ تَتَفَادَى إِلَى الْأَحْسَنِ بِالطَّبْعِ أَعْدَمَهُ التَّفْوِضُ دَرَكَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَأَعْقَبَهُ التَّوَكُّلُ نَدَمَ الْخَائِبِينَ، فَصَارَ مِنَ الْأَدَبِ عَاطِلًا، وَفِي صُورَةِ الْجَهْلِ دَاحِلًا؛ لِأَنَّ الْأَدَبَ مَكْتَسَبٌ بِالتَّجَرِبَةِ، أَوْ مُسْتَحْسَنٌ بِالْعَادَةِ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ مَوَاضِعَةٌ. وَذَلِكَ لَا يُنَالُ بِتَوْقِيفِ الْعَقْلِ وَلَا بِالْإِنْبِيَادِ لِلطَّبْعِ حَتَّى يُكْتَسَبَ بِالتَّجَرِبَةِ وَالْمُعَانَاةِ، وَيُسْتَفَادَ بِالدَّرَبَةِ ^(٢) وَالْمُعَاطَاةِ. ثُمَّ يَكُونُ الْعَقْلُ عَلَيْهِ قِيَمًا وَرُكْبَى الطَّبْعِ إِلَيْهِ مُسْلَمًا. وَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ مُغْنِيًا عَنِ الْأَدَبِ لَكَانَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ آدِيهِ مُسْتَعْنِينَ، وَيَعْقُولُهُمْ مُسْتَكْفِينَ. وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ^(٣).

وَقِيلَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ - : «مَنْ آدَبَكَ؟ قَالَ: مَا آدَبَنِي أَحَدٌ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ جَهْلَ الْجَاهِلِ فَجَانَبْتُهُ».

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؑ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنَهَا وَضَلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ، فَحَسِبَ الرَّجُلُ أَنْ يَتَّصِلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِخُلُقٍ مِنْهَا. وَقَالَ أَزْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ: مِنْ فَضِيلَةِ الْأَدَبِ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَمُتَزَيَّنٌ بِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَبَاقٍ ذِكْرُهُ عَلَى أَيَّامِ الزَّمَانِ.

وَقَالَ مَهْبُودٌ: شَبَّهَ الْعَالِمُ الشَّرِيفُ الْقَدِيمُ الْأَدَبُ بِالْبُنْيَانِ الْخَرَابِ الَّذِي كُلَّمَا عَلَا سُمْكُهُ كَانَ أَشَدَّ لَوْخَشْتِهِ وَبِالتَّهَرُّبِ الْبَاسِ الَّذِي كُلَّمَا كَانَ أَعْرَضَ وَأَعَمَّقَ كَانَ أَشَدَّ لَوْعُورَتِهِ، وَبِالْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ الْمُعْطَلَةِ الَّتِي كُلَّمَا طَالَ خَرَابُهَا أَزْدَادَ تَبَاتُهَا غَيْرَ الْمُتَفَتِّحِ بِهِ التِّفَافًا وَصَارَ لِلْهَوَامِ مَسْكَنًا.

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: مَا تَحُنُّ إِلَى مَا تَتَّقَى بِهِ عَلَى حَوَاسِنًا مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ بِأَحْوَجَ مِنَّا إِلَى الْأَدَبِ الَّذِي هُوَ لِقَاحُ عُقُولِنَا، فَإِنَّ الْحَبَّةَ الْمَدْفُونَةَ فِي الثَّرَى لَا تَطْلُعُ زَهْرُهَا وَنَضَارَتُهَا إِلَّا بِالْمَاءِ الَّذِي يَعُودُ إِلَيْهَا مِنْ مُسْتَوْدَعِهَا.

(١) مجبولة: مطبوعة ومفطورة.

(٢) الدربة: التدريب والممارسة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٨١، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٥١.

وَحَكَى الْأَضْمَعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِابْنِهِ: يَا بَنِي الْعَقْلِ بَلَا أَدَبٍ كَالشَّجَرِ الْعَاقِرِ، وَمَعَ الْأَدَبِ دِعَامَةٌ أَيَّدُ اللَّهُ بِهَا الْأَلْتَابَ، وَحَلِيَّةٌ زَيَّنَ اللَّهُ بِهَا عَوَاطِلَ الْأَحْسَابِ، فَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَعْنِي وَإِنْ صَحَّتْ غَرِيزَتُهُ، عَنِ الْأَدَبِ الْمُخْرِجِ زَهْرَتَهُ، كَمَا لَا تَسْتَعْنِي الْأَرْضُ وَإِنْ عَذَّبَتْ تُرْبَتُهَا عَنِ الْمَاءِ الْمُخْرِجِ ثَمَرَتُهَا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْأَدَبُ صُورَةُ الْعَقْلِ فَصَوِّرْ عَقْلَكَ كَيْفَ شِئْتَ.

وَقَالَ آخَرُ: الْعَقْلُ بِلَا أَدَبٍ كَالشَّجَرِ الْعَاقِرِ، وَمَعَ الْأَدَبِ كَالشَّجَرِ الْمُثْمِرِ. وَقِيلَ الْأَدَبُ أَحَدُ الْمَنْصِبَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: الْفَضْلُ بِالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ، لَا بِالْأَضْلِ وَالْحَسَبِ؛ لِأَنَّ مَنْ سَاءَ أَدَبُهُ ضَاعَ نَسَبُهُ، وَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ ضَلَّ أَضْلُهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدَبَاءِ: ذَكَ قَلْبِكَ بِالْأَدَبِ كَمَا تَذَكِّي النَّارُ بِالْحَطَبِ، وَاتَّخِذِ الْأَدَبَ غُنْمًا، وَالْحِرْصَ عَلَيْهِ حِطًّا، يَزْتَجِيكَ رَاغِبٌ، وَيَخَافُ صَوْلَتَكَ رَاهِبٌ، وَيُؤْمَلُ نَفْعَكَ، وَيُرْجَى عَدْلُكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْأَدَبُ وَسِيلَةٌ إِلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَدَرِيْعَةٌ إِلَى كُلِّ شَرِيْعَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفْصِحَاءِ: الْأَدَبُ يَسْتُرُ قَبِيْحَ النَّسَبِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فِيهِ:

وَلَا اكْتَسَبَ النَّاسُ مِثْلَ الْأَدَبِ
وَلَا حَسَبُ الْمَرْءِ إِلَّا النَّسَبُ
وَأَفَةُ ذِي الْجِلْمِ طَيْشُ الْعَضْبِ

فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِثْلَ الْمُقُولِ
وَمَا كَرُمَ الْمَرْءُ إِلَّا الثَّقَى
وَفِي الْعِلْمِ زَيْنٌ لِأَهْلِ الْحِجَابِ
وَأَشَدُّ الْأَضْمَعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -:

ذَا الْعَقْلُ مُسْتَعْنِيًا عَنِ حَادِثِ الْأَدَبِ
بِالْتُرْبِ تَظْهَرُ مِنْهُ زَهْرَةُ الْعُشْبِ
غَرِيْزَةُ الْعَقْلِ حَاكِي الْبُهْمِ فِي الْحَسَبِ

وَإِنْ يَكُ الْعَقْلُ مَوْلُودًا فَلَسْتُ
إِنِّي رَأَيْتُهُمَا كَالْمَاءِ مُخْتَلِطًا
وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَتْهُ فِي مَوَالِدِهِ

وَالتَّادِيْبُ يَلْزَمُ مِنْ وَجْهِينَ:

* أَحَدُهُمَا: مَا لَزِمَ الْوَالِدَ لِوَالِدِهِ فِي صِغَرِهِ.

* وَالثَّانِي: مَا لَزِمَ الْإِنْسَانَ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ نُشَاتِهِ وَكِبَرِهِ.

فَأَمَّا التَّادِيْبُ اللَّازِمُ لِلْأَبِ فَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ وَلَدَهُ بِمَبَادِيِ الْأَدَابِ لِئَانَسَ بِهَا، وَيَنْشَأَ عَلَيْهَا، فَيَسْهَلَ عَلَيْهِ قَبُولُهَا عِنْدَ الْكِبَرِ لِاسْتِنْسَانِهِ بِمَبَادِيِهَا فِي الصَّغَرِ؛ لِأَنَّ نُشَاءَ الصَّغَرِ عَلَى الشَّيْءِ يَجْعَلُهُ مُتَطَبِّعًا بِهِ. وَمَنْ أَغْفَلَ تَأْدِيْبُهُ فِي الصَّغَرِ كَانَ تَأْدِيْبُهُ فِي الْكِبَرِ عَسِيْرًا.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدَهُ نِحْلَةً أَفْضَلَ مِنْ آدَبٍ حَسَنٍ يُفِيدُهُ إِثَابَهُ، أَوْ جَهْلٍ قَبِيحٍ يَكْفِيهِ عَنهُ وَيَمْنَعُهُ مِنْهُ»^(١). وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ: بَادِرُوا بِآدَبِيبِ الْأَطْفَالِ قَبْلَ تَرَائِكُمِ الْأَشْغَالِ وَتَفْرِقِ الْبَالَ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

إِنَّ الْمُصُونِ إِذَا قَوْمَتْهَا اغْتَدَلَتْ وَلَا يَلِينُ إِذَا قَوْمَتْهُ الْحَشَبُ
قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَخْدَاتَ فِي صِرِّ وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الشَّيْبَةِ الْأَدَبُ
وَقَالَ آخَرُ:

يَنْشُو الصَّغِيرُ عَلَى مَا كَانَ وَالِدُهُ إِنَّ الْأُصُولَ عَلَيْهَا يَبْتُ الشَّجَرُ^(٢)

وَأَمَّا الْأَدَبُ اللَّازِمُ لِلْإِنْسَانِ عِنْدَ نُشُوهِ وَكِبَرِهِ فَأَدَبَانِ: آدَبٌ مُوَاضِعَةٌ وَاصْطِلَاحٌ، وَآدَبٌ رِيَاضِيَةٌ وَاسْتِضْلَاحٌ. فَأَمَّا آدَبُ الْمَوَاضِعَةِ وَالْاصْطِلَاحِ فَيُؤْخَذُ تَقْلِيدًا عَلَى مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ اصْطِلَاحُ الْعُقَلَاءِ، وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ اسْتِخْسَانُ الْأَدْبَاءِ. وَلَيْسَ لِاصْطِلَاحِهِمْ عَلَى وَضْعِهِ تَعْلِيلٌ مُسْتَنْبِطٌ، وَلَا لَاتَّفَاقِهِمْ عَلَى اسْتِخْسَانِهِ دَلِيلٌ مُوجِبٌ، كَاصْطِلَاحِهِمْ عَلَى مُوَاضِعَاتِ الْخِطَابِ، وَاتَّفَاقِهِمْ عَلَى هَيْئَاتِ اللَّبَاسِ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ الْآنَ إِذَا تَجَاوَزَ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْهَا صَارَ مُجَانِبًا لِلْأَدَبِ، مُسْتَوْجِبًا لِلذَّمِّ. لِأَنَّ فِرَاقَ الْمَأْلُوفِ فِي الْعَادَةِ، وَمُجَانِبَتِهِ مَا صَارَ مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بِالْمَوَاضِعَةِ، مُفْضٍ إِلَى اسْتِحْقَاقِ الذَّمِّ بِالْعَقْلِ مَا لَمْ يَكُنْ لِمُخَالَفَتِهِ عِلَّةً ظَاهِرَةً وَمَعْنَى حَادِثٍ. وَقَدْ كَانَ جَائِزًا فِي الْعَقْلِ أَنْ يُوضَعَ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ فَيَرَوْنَهُ حَسَنًا، وَيَزُونَ مَا سِوَاهُ قَبِيحًا، فَصَارَ هَذَا مُشَارِكًا لِمَا وَجِبَ بِالْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ تَوَجُّهُ الذَّمِّ عَلَى تَارِكِهِ وَمُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا فِي الْعَقْلِ أَنْ يُوضَعَ عَلَى خِلَافِهِ. وَأَمَّا آدَبُ الرِّيَاضِيَةِ وَالْاسْتِضْلَاحِ فَهُوَ مَا كَانَ مَحْمُولًا عَلَى حَالٍ لَا يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَكُونَ بِخِلَافِهَا، وَلَا أَنْ تَخْتَلَفَ الْعُقَلَاءُ فِي صِلَاحِهَا وَفَسَادِهَا. وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَتَعْلِيلُهُ بِالْعَقْلِ مُسْتَنْبِطٌ، وَوُضُوحُ صِحَّتِهِ بِالذَّلِيلِ مُرْتَبِطٌ. وَلِلنَّفْسِ عَلَى مَا يَأْتِي مِنْ ذَلِكَ شَاهِدٌ أَهْمَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِزْشَادًا لَهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: بَيَّنَّ لَهَا مَا يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ وَتَذَرُّ مِنَ الشَّرِّ. وَسَنَذَكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، فَإِنَّهُ أَوْلَى بِهِ وَأَحَقُّ. فَأَوَّلُ مَقَدِّمَاتِ آدَبِ الرِّيَاضِيَةِ وَالْاسْتِضْلَاحِ أَنْ لَا يَسْبِقَ إِلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِنَفْسِهِ، فَيُخْفَى عَنهُ مَذْمُومٌ سِيَمِهِ وَمَسَاوِيءُ أَخْلَاقِهِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ بِالشَّهَوَاتِ أَمْرَةٌ، وَعَنْ الرَّشْدِ زَاجِرَةٌ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

(١) أخرجه أحمد في المسند ٧٧/٤، والترمذي في السنن رقم ١٩٥٢، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة

رقم ١١٢١.

(٢) ينشو: بمعنى ينشأ من النشأة.

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وَقَالَ ﷺ: «أَعْدَىٰ أَعْدَانِكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، ثُمَّ أَهْلُكَ، ثُمَّ عِيَالُكَ»^(١). وَدَعَتْ أُعْرَابِيَّةٌ لِرَجُلٍ فَقَالَتْ: كَبَتَ اللَّهُ كُلَّ عَدُوِّكَ إِلَّا نَفْسَكَ. فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ:

قَلْبِي إِلَى مَا ضَرَّرَنِي دَاعِي
بُكْبِرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
كَيْفَ اخْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا
كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي

فَإِذَا كَانَتْ النَّفْسُ كَذَلِكَ فَحُسْنُ الظَّنِّ بِهَا ذَرِيعَةٌ إِلَى تَحْكِيمِهَا، وَتَحْكِيمُهَا دَاعٍ إِلَى سَلْطَتِهَا^(٢) وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ بِهَا. فَإِذَا صَرَفَ حُسْنَ الظَّنِّ عَنْهَا وَتَوَسَّمَهَا بِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْوِيفِ وَالْمَكْرِ فَازَ بِطَاعَتِهَا، وَانْحَارَ عَنْ مَعْصِيَتِهَا، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: الْعَاجِزُ مَنْ عَجَزَ عَنِ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ سَاسَ^(٣) نَفْسَهُ سَادَ نَاسَهُ، فَأَمَّا سُوءُ الظَّنِّ بِهَا فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ لِمَا فِيهِ مِنْ أَتِهَامِ طَاعَتِهَا، وَرَدَّ مُنَاصِحَتِهَا، فَإِنَّ النَّفْسَ وَإِنْ كَانَ لَهَا مَكْرٌ يُزِيدِي فَلَهَا نُصْحٌ يُهْدِي. فَلَمَّا كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بِهَا يُعْمِي عَنْ مَسَاوِئِهَا، كَانَ سُوءُ الظَّنِّ بِهَا يُعْمِي عَنْ مَحَاسِنِهَا. وَمَنْ عَمِيَ عَنْ مَحَاسِنِ نَفْسِهِ كَانَ كَمَنْ عَمِيَ عَنْ مَسَاوِئِهَا، فَلَمْ يَنْفِ عَنْهَا قَيْحًا وَلَمْ يَهْدِ إِلَيْهَا حَسَنًا. وَقَدْ قَالَ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِ الْبَيَانِ^(٤): يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا، وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهَا مُقْتَصِدًا، فَإِنَّهُ إِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي التُّهْمَةِ ظَلَمَهَا فَأَوْدَعَهَا ذُلَّةَ الْمَظْلُومِينَ، وَإِنْ تَجَاوَزَ بِهَا الْحَقَّ فِي مِقْدَارِ حُسْنِ الظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ الْأَمْنِينَ، وَلِكُلِّ ذَلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ الشُّغْلِ، وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ الزُّهْنِ، وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ الْجَهْلِ.

وَقَالَ الْأَخْتَفُ بْنُ قَيْسٍ: مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَانَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمَ، وَمَنْ هَدَمَ دِينَهُ كَانَ لِمَجْدِهِ أَهْدَمَ. وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ بِهَا أُبْلَغَ فِي صَلَاحِهَا، وَأَوْفَرَ فِي اجْتِهَادِهَا؛ لِأَنَّ لِلنَّفْسِ جُورًا لَا يَنْفَكُ إِلَّا بِالسَّخَطِ عَلَيْهَا، وَغُرُورًا لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بِالتُّهْمَةِ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مَحْبُوبَةٌ تَجُورُ إِذْ لَوْلَا وَتَعْرُ مَكْرًا، فَإِنْ لَمْ يُسَيِّءِ الظَّنُّ بِهَا عَلَبَ عَلَيْهِ جُورُهَا، وَتَمَوَّهَ عَلَيْهِ غُرُورُهَا فَصَارَ بِمَيْشُورِهَا قَانِعًا، وَبِالشُّبْهَةِ مِنْ أفعالِهَا رَاضِيًا. وَقَدْ قَالَتْ الْحُكَمَاءُ: مَنْ رَضِيَ عَنِ نَفْسِهِ أَسْحَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ. وَقَالَ كُشَاجِمٌ^(٥):

(١) انظر الزبيدي في تخريج الإحياء ٢٣٥٦ بنحوه، والسند ضعيف.

(٢) سلطتها: وقاحتها ومنه فلان سلبط اللسان، قبيح الألفاظ.

(٣) ساس: من السياسة وهو يعني التعويد، أي من عود نفسه.

(٤) يعني به البيان والتبيين لأدب العربية الأكبر الجاحظ.

(٥) كشاجم: أحد فحول الشعراء، وهو محمود بن حسين توفي سنة ٣٦٠هـ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان

لَمْ أَرْضَ عَنْ نَفْسِي مَخَافَةَ سُخْطِهَا
وَلَوْ أَنِّي عَنْهَا رَضَيْتُ لَقَصَّرْتُ
وَتَبَيْتُتُ آثَارَ ذَلِكَ فَأَكْثَرْتُ
وَقَدْ اسْتُحْسِنَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامِ الطَّائِي:
هُوَ بِإِحْسَانٍ ظَنًّا لَا كَمَنُ

فَلَمْ يَرَوْا إِسَاءَةَ ظَنَّهُ بِالْإِحْسَانِ ذَمًّا وَلَا اسْتِقْلَالَ عِلْمِهِ لَوْ مَا، بَلْ رَأَوْا ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الْفَضْلِ وَأَبَعَتْ
عَلَى الْأَزْدِيَّادِ فَإِذَا عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ مَا تُجِنُّ، وَتَصَوَّرَ مِنْهَا مَا تُكِنُّ، وَلَمْ يُطَاوِعْهَا فِيمَا تُحِبُّ إِذَا كَانَ
غَيًّا، وَلَا صَرَفَ عَنْهَا مَا تَكْرَهُ إِذَا كَانَ رُشْدًا، فَقَدْ مَلَكَهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي مِلْكِهَا، وَعَلَبَهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي
عَلَيْهَا. وَقَدْ رَوَى أَبُو حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الشَّيْءُ مَنْ غَلَبَتْ نَفْسُهُ» (١).

وَقَالَ عَوْزُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: إِذَا عَصَيْتَ نَفْسَكَ فِيمَا كَرِهْتَ فَلَا تُطْعَمْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ، وَلَا يُعْرَنِّكَ ثَنَاءُ
مَنْ جَهَلَ أَمْرَكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: مَنْ قَوِيَ عَلَى نَفْسِهِ تَنَاهَى فِي الْقُوَّةِ، وَمَنْ صَبَرَ عَنْ شَهْوَتِهِ بَالَعَ فِي الْمُرُوءَةِ.
فِيحَيْثُ يُأْخِذُ نَفْسَهُ عِنْدَ مَعْرِفَةٍ مَا أَكُنْتُ، وَخَيْرَةٌ مَا أَجْنَبْتُ بِتَقْوِيمِ عَوَجِهَا وَإِصْلَاحِ فَسَادِهَا، وَقَدْ رُوِيَ
عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ؟ قَالَ إِذَا عَرَفَ
نَفْسَهُ» (٢).

ثُمَّ يُرَاعِي مِنْهَا مَا صَلَحَ وَاسْتَقَامَ مِنْ زَيْعٍ يَحْدُثُ عَنْ إِغْفَالٍ (٣)، أَوْ مَيْلٍ يَكُونُ عَنِ الْإِهْمَالِ؛ لِيَسِمَ لَهُ
الصَّلَاحُ وَتُسْتَدِيمَ لَهُ السَّعَادَةُ، فَإِنَّ الْمُعْفَلَ بَعْدَ الْمَعَانَاةِ ضَائِعٌ، وَالْمُهْمَلُ بَعْدَ الْمُرَاعَاةِ زَائِعٌ. وَسَنَدُّكُرُّ
مِنْ أَحْوَالِ آدَبِ الرِّيَاضَةِ وَالِاسْتِصْلَاحِ فَضُولًا تَحْتَوِي عَلَى مَا يَلْزَمُ مُرَاعَاتَهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَيَجِبُ
مُعَانَاتُهُ مِنَ الْأَدَبِ، وَهِيَ سِتَّةُ فَضُولٍ مُتَفَرِّعَةٍ.



(١) أخرجه البخاري حديث ٦١١٤ ومسلم حديث ٢٦٠٩، وأحمد في المسند ٢/٢٣٦.
(٢) سبق تخريجه وبيان قول الإمام النووي أنه ليس بثابت.
(٣) جاءت اللفظة من الغفلة.

الفصل الأول في مجانبة الكبر والإعجاب

لأنَّهُمَا يَسْلُبَانِ الْفَضَائِلَ، وَيُكْسِبَانِ الرَّذَائِلَ. وَلَيْسَ لِمَنْ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ إِضْعَاءٌ لِيُضْحَ، وَلَا قَبُولٌ لِتَأْدِيبٍ؛ لِأَنَّ الْكِبْرَ يَكُونُ بِالْمَنْزِلَةِ، وَالْعُجْبَ يَكُونُ بِالْفَضِيلَةِ. فَالْمُتَكَبِّرُ يُجِلُّ نَفْسَهُ عَنِ رُتْبَةِ الْمُتَعَلِّمِينَ، وَالْمُعْجَبُ يَسْتَكْبِرُ فَضْلَهُ عَنِ اسْتِزَادَةِ الْمُتَأَدِّبِينَ. فَلِذَلِكَ، وَجِبَ تَقْدِيمُ الْقَوْلِ فِيهِمَا بِإِتَابَةِ مَا يُكْسِبَانِهِ مِنْ ذَمٍّ، وَيُوجِبَانِهِ مِنْ لَوْمٍ. فَتَقُولُ: أَمَّا الْكِبْرُ فَيُكْسِبُ الْمَقْتَّ وَيُلْهِي عَنِ التَّأَلُّفِ وَيُوغِرُ صُدُورَ الْإِخْوَانِ، وَحَسْبُكَ بِذَلِكَ سُوءًا عَنِ اسْتِفْضَاءِ ذَمِّهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ: «أَنْهَكَ عَنِ الشَّرْكِ بِاللَّهِ وَالْكَبْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحْتَجِبُ مِنْهُمَا»^(١). وَقَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ: مَا الْكِبْرُ إِلَّا فَضْلٌ حُمِقَ لَمْ يَذَرِ صَاحِبُهُ أَيْنَ يَذْهَبُ بِهِ فَيَصْرِفُهُ إِلَى الْكِبْرِ. وَمَا أَشْبَهَ مَا قَالَ بِالْحَقِّ.

وَحِكْمِي عَنِ مُطَّرَفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ نَظَرَ إِلَى الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا وَيَمْشِي الْخِيَلَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْمِشِيَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ فَقَالَ الْمُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلَى أَعْرَفُكَ، أَوْلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَّةٌ، وَأَخْرُكَ جِيفَةً قَذِرَةٌ، وَحَشُوكَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وَعَذِرَةٌ. فَأَخَذَ ابْنُ عَوْفٍ هَذَا الْكَلَامَ فَنَظَّمَهُ شِعْرًا فَقَالَ:

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ	وَكَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَةً
وَفِي عَدِيدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ	يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَةً
وَهُوَ عَلَى تَيْبِهِ وَتَخَوُّتِهِ	مَا بَيْنَ نُؤْيَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذِرَةَ

وَقَدْ كَانَ الْمُهَلَّبُ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يَخْدَعَ نَفْسَهُ بِهَذَا الْجَوَابِ غَيْرِ الصَّوَابِ، وَلَكِنَّهَا زَلَّةٌ مِنْ زَلَّاتِ الْاسْتِزْسَالِ، وَخَطِيئَةٌ مِنْ خَطَايَا الْإِذْلَالِ. فَأَمَّا الْحُمُقُ الصَّرِيحُ، وَالْجَهْلُ الْقَبِيحُ، فَهُوَ مَا حِكْمِي عَنِ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُ جَلَسَ فِي حَلَقَةِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخِرَقِيِّ وَهُوَ يُقْرِئُ النَّاسَ، فَلَمَّا

(١) أخرج نحوه النسائي رقم ١٠٦٦٨، وذكر قريباً منه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٣٤ في وصية نوح عليه السلام لابنه.

فَرَعَ قَالَ: اتَدْرُونَ لِمَ جَلَسْتُ إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْتَ لِتَسْمَعَ. قَالَ: لَا وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ اتَوَاضَعَ لِلَّهِ بِالْجُلُوسِ إِلَيْكُمْ. فَهَلْ يُزَجِي مِنْ هَذَا فَضْلٌ أَوْ نَبْعٌ فِيهِ عَدْلٌ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: لَمَّا عَرَفَ أَهْلُ النَّقْصِ حَالَهُمْ عِنْدَ ذَوِي الْكَمَالِ اسْتَعَانُوا بِالْكَبِيرِ لِيعْظَمَ صَغِيرًا، وَيَزْفَعَ حَقِيرًا، وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ. وَأَمَّا الْإِعْجَابُ فَيُخْفِي الْمَحَاسِنَ وَيُظْهِرُ الْمَسَاوِيَّ وَيُكْسِبُ الْمَذَامَ وَيَصُدُّ عَنِ الْفَضَائِلِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعُجْبَ لَيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» (١).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - : الْإِعْجَابُ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ (٢).

وَقَالَ بَرَزْجَمَهْرُ: التُّعْمَةُ الَّتِي لَا يُحْسَدُ صَاحِبُهَا عَلَيْهَا التَّوَاضُّعُ، وَالبَلَاءُ الَّذِي لَا يُزْحَمُ صَاحِبُهُ مِنْهُ الْعُجْبُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: عُجِبَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ، وَلَيْسَ إِلَى مَا يُكْسِبُهُ الْكِبَرُ مِنَ الْمَقْتِ حَدٌّ، وَلَا إِلَى مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعُجْبُ مِنَ الْجَهْلِ غَايَةٌ، حَتَّى إِنَّهُ لِيُطْفِئُ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا انْتَشَرَ، وَيَسْلُبُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا اشْتَهَرَ. وَنَاهِيكَ بِسَيِّئَةٍ تُحِيطُ كُلُّ حَسَنَةٍ وَبِمَذْمُومَةٍ تَهْدِمُ كُلَّ فَضِيلَةٍ، مَعَ مَا يُثِيرُهُ مِنْ حَقْنِ وَيُكْسِبُهُ مِنْ حِفْدٍ. حَكَى عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ قَالَ: قَبِلَ لِلْحَجَّاجِ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنَزْلَكَ بِالْعِرَاقِ؟ قَالَ: خَيْرُ مَنَزَلٍ لَوْ كَانَ اللَّهُ بَلَّغَنِي قَتْلَ أَرْبَعَةٍ فَتَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِدِمَائِهِمْ: مُقَاتِلُ بْنُ مُسْمِعٍ وَوَلِي سِجِسْتَانَ فَاتَاهُ النَّاسُ فَأَعْطَاهُمْ الْأَمْوَالَ، فَلَمَّا عَزَلَ دَخَلَ مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ فَبَسَطَ النَّاسُ لَهُ أَرْدِيَّتَهُمْ فَمَسَى عَلَيْهَا، وَقَالَ لِرَجُلٍ يُمَاشِيهِ: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ.

وَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ زِيَادِ بْنِ ظَبْيَانَ التَّيْمِيُّ خَوْفَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَمْرًا فَحَطَبَ حُطْبَةً أَوْجَزَ فِيهَا، فَتَادَى النَّاسُ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَسْجِدِ: أَكْثَرَ اللَّهُ فِيْنَا مِثْلَكَ. فَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفْتُمُ اللَّهَ شَطَطًا. وَمَعْبُدُ بْنُ زُرَّارَةَ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا فِي طَرِيقٍ فَمَرَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَوْضِعِ كَذَا؟ فَقَالَ: يَا هَنَاءُ مِثْلِي يَكُونُ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ. وَأَبُو سَعَالِ الْأَسَدِيُّ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ فَالْتَمَسَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَجِدْهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنْ لَمْ يَرِدْ إِلَيَّ رَاحِلَتِي لَا صَلَّيْتُ لَهُ صَلَاةً أَبَدًا. فَالْتَمَسَهَا النَّاسُ فَوَجَدُوهَا، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ رَدَّ اللَّهُ رَاحِلَتَكَ فَصَلِّ. فَقَالَ: إِنْ يَمِينِي يَمِينُ مُصْرٍ. فَانْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ كَيْفَ أَفْضَى بِهِمُ الْعُجْبُ إِلَى حُمُقٍ صَارُوا بِهِ نَكَالًا فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَثَلًا فِي الْآخَرِينَ. وَلَوْ تَصَوَّرَ الْمُعْجَبُ الْمُتَكَبِّرُ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ جِبَالَةٍ، وَبُلْبُلِي بِهِ مِنْ مِهْنَةٍ، لَحَفَّضَ جَنَاحَ نَفْسِهِ وَاسْتَبَدَلَ لَيْنًا مِنْ عُنُوتِهِ، وَسَكُوتًا مِنْ نُفُورِهِ.

وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: عَجِبْتُ لِمَنْ جَرَى فِي مَجْرَى الْبُؤُولِ مَرَّتَيْنِ كَيْفَ يَتَكَبَّرُ، وَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ الْإِنْسَانَ فَقَالَ:

(١) ليس بحديث، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، كما جاء في شعب الإيمان لليبيقي ٧٢٤٨.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٩٦/٤.

بَا مُظَهَّرَ الْكِبْرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ مِثْلَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ
أَنْفٌ بِسَيْلٍ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكَ
بَا ابْنَ الثَّرَابِ وَمَأْكُولِ الثَّرَابِ
أَنْظُرْ خَلَكَ فَإِنَّ النَّشْنَ تَثْرِبُ
مَا اسْتَشَعَرَ الْكِبْرَ شُبَانٌ وَلَا شَيْبُ
بَارِئٌ وَمَوْ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَقْدَارِ مَضْرُوبُ
وَالْعَيْنُ مُزْفَضَةٌ وَالشُّغْرُ مَلْعُوبُ
أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ

وَأَحَقُّ مَنْ كَانَ لِلْكِبْرِ مُجَانِبًا، وَلِلْإِعْجَابِ مُبَايِنًا، مَنْ جَلَّ فِي الدُّنْيَا قَدْرُهُ، وَعَظُمَ فِيهَا خَطَرُهُ؛ لِأَنَّهُ
قَدْ يَسْتَقِيلُ بِعَالِي هِمَّتِهِ كُلَّ كَثِيرٍ، وَيَسْتَصْغِرُ مَعَهَا كُلَّ كَبِيرٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: لَا يَنْبَغِي لِلشَّرِيفِ
أَنْ يَرَى شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِ خَطِيرًا فَيَكُونُ بِهَا نَابِهًا. وَقَالَ ابْنُ السَّمَاكِ لِعِيسَى بْنِ مُوسَى: تَوَاضَعُكَ
فِي شَرَفِكَ أَشْرَفُ لَكَ مِنْ شَرَفِكَ وَكَانَ يُقَالُ: اسْمَانِ مُتَضَادَّانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ: التَّوَضُّعُ وَالشَّرْفُ.

أسباب الكبر:

وللْكِبْرِ أسبابٌ: فَمِنْ أَقْوَى أسبابِهِ غُلُوُّ الْبَيْدِ، وَتَفُؤُذُ الْأَمْرِ، وَقَلَّةُ مُخَالَطَةِ الْأَكْفَاءِ.

وَحِكْيِي أَنْ قَوْمًا مَشَوْا خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقَالَ: أَبْعِدُوا عَنِّي خَفَقَ نَعَالِكُمْ فَإِنَّهَا مُفْسِدَةٌ
لِقُلُوبِ نَوَكِي الرِّجَالِ، وَمَشَوْا خَلْفَ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ ازْجِعُوا فَإِنَّهَا زَلَّةٌ لِلتَّابِعِ وَفِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ. وَرَوَى
قَيْسُ بْنُ حَازِمٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَأَصَابَتْهُ رِغْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ صلى الله عليه وآله: «هُوَ نَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ
كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» ^(١). وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ صلى الله عليه وآله حَسْمًا لِمَوَادِّ الْكِبْرِ، وَقَطْعًا لِذَرَائِعِ الْإِعْجَابِ، وَكَشْرًا
لِأَشْرِ النَّفْسِ، وَتَذْلِيلًا لِسَطْوَةِ الْإِسْتِعْلَاءِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ نَادَى الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ صَعِدَ
الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَقَدْ رَأَيْتَنِي أَرْعَى عَلَى خَالَاتِ
لِي مِنْ بَنِي مَخْرُومٍ فَيَقْبِضُ لِي الْقَبْضَةَ مِنَ الثَّمَرِ وَالزَّبِيبِ فَأَظِلُّ الْيَوْمَ وَأَيُّ يَوْمٍ! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
بْنُ عَوْفٍ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا زِدْتَ عَلَيَّ أَنْ قَصَّرْتَ بِنَفْسِكَ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَيَحْكُ يَا ابْنَ
عَوْفٍ إِنِّي خَلَوْتُ فَحَدَّثْتَنِي نَفْسِي، فَقَالَتْ أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ ذَا أَفْضَلَ مِنْكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعْرِفَهَا
نَفْسَهَا!! ^(٢)

(١) أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٨٨٦، والقديد، هو اللحم المقدم أي المجفف،
وكان طعام الفقراء من العرب.

(٢) انظر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي ٨٦.

أسباب الإعجاب:

وللإعجاب أسباب: فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا التفاق عادةً ومكسبًا، والتملق خديعةً وملعبًا، فإذا وجدوه مقبولًا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعةً إلى الاستهزاء بهم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له: «قطعت مطأه لو سمعها ما أفلح بعدها»^(١). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المدح ذبح. وقال ابن المقفع: قابل المدح كمداح نفسه. وقال بعض الحكماء: من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن السائح منه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والتماذح فإنه الذبح إن كان أحدكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أركي على الله أحدًا»^(٢). وقيل فيما أنزل الله ﷻ من الكتب السالفة: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب. وقال بعض الشعراء:

يَاجِهْ لَأَعْرَهُ إِفْرَاطَ مَادِحِهِ لَا يَغْلِبَنَّ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عَلِمُكَ بِكَ
أَنْتَى وَقَالَ بِلَاعِلِمِ أَحَاطِ بِهِ وَأَنْتَ أَغْلَمُ بِالْمَحْضُولِ مِنْ رَبِّكَ

وهذا أمرٌ يتبعني للعاقل أن تضبط نفسه عن أن يستفزها، ويمنعها من تصديق المدح لها، فإن للنفس ميلاً لحب الثناء وسماع المدح. وقال الشاعر:

يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقْصِرٌ حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ

فإذا سامح نفسه في مدح الصبوة، وتابعتها على هذه الشهوة، تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة، ولها بها عن المحاسن الممنوحة، فصار الظاهر من مدحه كذبًا، والباطن من دمه صدقًا، وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الأمرين. وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يتخذ بها مميّز.

وليعلم أن المتقرب بالمدح يشرف مع القبول ويكف مع الإباء، فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولتكن نهمته المادح أغلب عليه. فقل مدح كان جميعه صدقًا، وقل ثناء كان له حقًا. ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرُّزًا من التجاوز فيه، وتزريها عن التملق به.

وقد روى مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عتابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين

(١) أخرجه البخاري بنحوه ٢٦٦٢، ومسلم ٣٠٠٠، ومعنى مطأه: ظهره.

(٢) انظر البخاري في الأدب ٦٠٦٠، ومسلم في الزهد ٣٠٠١، وابن ماجه في الأدب ٣٧٤٣.

وَلَا مُتَمَاوِيَيْنَ»^(١). وَحَكَى الْأَضْمَعِيُّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصُّدَيْقَ رضي الله عنه كَانَ إِذَا مَدَحَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي خَيْرًا مِمَّا يَحْسَبُونَ وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَمْدَحْهُ حُسْنُ فِعَالِهِ فَمَادِحُهُ يَهْدِي وَإِنْ كَانَ مُفْصِحًا

وَرُبَّمَا آلَ حُبِّ الْمَدْحِ بِصَاحِبِهِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ مَادِحَ نَفْسِهِ، إِمَّا لِتَوْهَمِهِ أَنَّ النَّاسَ قَدْ غَفَلُوا عَنْ فَضْلِهِ، وَأَخْلَوْا بِحَقِّهِ. وَإِمَّا لِئِخْدَاعِهِمْ بِتَدْلِيْسِ نَفْسِهِ بِالْمَدْحِ وَالْإِطْرَاءِ، فَيَغْتَفِدُونَ أَنْ قَوْلَهُ حَقٌّ مُسْتَمَعٌ، وَصِدْقٌ مُسْتَمَعٌ. وَإِمَّا لِئَلْتَلِذْهُ بِسَمَاعِ الثَّنَاءِ وَسُرُورِ نَفْسِهِ بِالْمَدْحِ وَالْإِطْرَاءِ، مَا يَتَعَنَّى بِنَفْسِهِ طَرَبًا إِذَا لَمْ يَسْمَعْ صَوْتًا مُطْرَبًا وَلَا غِنَاءً مُمْتِعًا. وَإِلَّا يَ ذَلِكَ كَانَ فَهُوَ الْجَهْلُ الصَّرِيحُ، وَالتَّقْصُصُ الْقَضِيحُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا شَرَفَ أَنْ يَمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنْ أَعْمَالَ تَذُمَّ وَتَمْدَحَ
وَمَا كُلُّ حِينَ يَصْدُقُ الْمَرْءُ ظَنَّهُ وَلَا كُلُّ أَصْحَابِ التَّجَارَةِ يَزْبَحُ
وَلَا كُلُّ مَنْ تَرَجُّو لِعَيْتِكَ حَافِظًا وَلَا كُلُّ مَنْ ضَمَّ الْوَدِيعَةَ يَضْلُحُ

وَيُنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَرْشِدَ إِخْوَانَ الصُّدُقِ الَّذِينَ هُمْ أَصْفِيَاءُ الْقُلُوبِ، وَمُرَاتِي الْمَحَاسِنِ وَالْعُيُوبِ، عَلَى مَا يُنْبَهُونَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَاوِيهِ الَّتِي صَرَفَهُ حَسَنُ الظَّنِّ عَنْهَا. فَإِنَّهُمْ أَمْكَنُ نَظَرًا، وَأَسْلَمُ فِكْرًا، وَيَجْعَلُونَ مَا يُنْبَهُونَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَاوِيهِ عَوَاضًا عَنْ تَصْدِيقِ الْمَدْحِ فِيهِ.

وَقَدْ رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ مِنْ مِرَاةِ الْمُؤْمِنِ إِذَا رَأَى فِيهِ عَيْبًا أَصْلَحَهُ»^(٢). وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا. وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَتَحِبُّ أَنْ تُهْدَى إِلَيْكَ عُيُوبُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، مِنْ نَاصِحٍ، وَمِمَّا يَقَارِبُ مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ مَا رَوَى عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِأَبْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مَنْ تَرَى أَنْ تَوْلِيَهُ حِمَصَ؟ فَقَالَ: رَجُلًا صَاحِبًا مِنْكَ، صَاحِبًا لَكَ. قَالَ: تَكُونُ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلِ. قَالَ: لَا تَنْتَفِعُ بِي مَعَ سُوءِ ظَنِّي بِكَ وَسُوءِ ظَنِّكَ بِي. وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: مَنْ أَظْهَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ فَقَدْ زَكَّاهَا. فَإِذَا قَطَعَ أَسْبَابَ الْكِبَرِ وَحَسَمَ مَوَادَّ الْعُجْبِ اغْتَاضَ بِالْكَبَرِ تَوَاضَعًا وَبِالْعُجْبِ تَوَدُّدًا. وَذَلِكَ مِنْ أَوْكَدِّ أَسْبَابِ الْكِرَامَةِ وَأَقْوَى مَوَادِّ النِّعَمِ وَأَبْلَغِ شَافِعِ إِلَى الْقُلُوبِ يَغْطِفُهَا إِلَى الْمَحَبَّةِ وَيُنْبِيهَا عَنِ الْبُغْضِ.

(١) ذكره ابن المبارك في الزهد ٣٩١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٢١١٤، وأبو داود في الأدب ٤٩١٨ والحديث حسن.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ بَرِيَ مِنْ ثَلَاثِ نَالَ ثَلَاثًا: مَنْ بَرِيَ مِنَ السَّرَفِ نَالَ الْعِزَّ. وَمَنْ بَرِيَ مِنَ الْبُخْلِ نَالَ الشَّرْفَ. وَمَنْ بَرِيَ مِنَ الْكِبْرِ نَالَ الْكِرَامَةَ. وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ: التَّوَاضُعُ مَصَادِقُ الشَّرْفِ.

وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: مَنْ دَامَ تَوَاضَعُهُ كَثُرَ صَدِيقُهُ. وَقَدْ تُحَدِّثُ الْمَنَازِلُ وَالْوَلَايَاتُ لِقَوْمِ أَخْلَاقًا مَذْمُومَةً يُظْهِرُهَا سُوءُ طِبَاعِهِمْ، وَالْآخَرِينَ فَضَائِلَ مَحْمُودَةً يَبْعَثُ عَلَيْهَا زَكَاءَ شِيَمِهِمْ؛ لِأَنَّ تَقَلُّبَ الْأَحْوَالِ سَكْرَةٌ تُظْهِرُ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَكْنُونَهَا، وَمِنَ السَّرَائِرِ مَخْزُونَهَا، لَا سِيَّمَا إِذَا هَجَمَتْ مِنْ غَيْرِ تَدْرِيجٍ وَطَرَقَتْ مِنْ غَيْرِ تَأْهِبِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ تَعَرَّفَ جَوَاهِرُ الرُّجَالِ. وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ: مَنْ كَانَتْ وَلَايَتُهُ فَوْقَ قُدْرَةِ تَكْبِيرِ لَهَا، وَمَنْ كَانَتْ وَلَايَتُهُ دُونَ قُدْرَةِ تَوَاضِعِ لَهَا. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: النَّاسُ فِي الْوَلَايَةِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ يُجِلُّ الْعَمَلَ بِفَضْلِهِ وَمُرُوءَتِهِ، وَرَجُلٌ يُجِلُّ بِالْعَمَلِ لِنَفْسِهِ وَدَنَاءَتِهِ. فَمَنْ جَلَّ عَنْ عَمَلِهِ أَزْدَادَهُ تَوَاضَعًا وَيَشْرًا، وَمَنْ جَلَّ عَنْهُ عَمَلُهُ أَزْدَادَهُ تَجَبُّرًا وَتَكْبِيرًا^(١).

الفصل الثاني في حُسن الخلق

رُويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَأَكْرَمُوهُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِهِمَا»^(٢).

وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَذْوَابِ الدَّاءِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: الْخُلُقُ الدِّينِيُّ وَاللِّسَانُ الْبِدْيِيُّ، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ ضَاعَ رِزْقُهُ.

وَعَلَّةُ هَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرَةٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: الْحُسْنُ الْخُلُقِيُّ مَنْ نَفْسُهُ فِي رَاحَةٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي سَلَامَةٍ. وَالسَّيِّئُ الْخُلُقِيُّ النَّاسُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، وَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ فِي عَنَاءٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: عَاشِرُ أَهْلِكَ بِأَخْسَنِ أَخْلَاقِكَ فَإِنَّ التَّوَاءَ فِيهِمْ قَلِيلٌ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

(١) انظر هذا الخبر وما سبقه من أخبار في الكامل للمبرد ٢/٩٦، ٩٧.

(٢) أخرجه ابن عساکر ٥٠/٢٨٩.

إِذَا لَمْ تَتَّبِعْ أَخْلَاقَ قَوْمٍ تَضِيقُ بِهِمْ فَسِيحَاتِ الْبِلَادِ
 إِذَا مَا الْمَرْءُ لَمْ يُخْلَقْ لِبَيْتٍ فَلَيْسَ اللَّبُّ عَنْ قَدَمِ الْوِلَادِ

فَإِذَا حَسَنْتَ أَخْلَاقَ الْإِنْسَانِ كَثُرَ مُصَافُوهُ، وَقَلَّ مُعَادُوهُ، فَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الصَّعَابُ، وَلَا نَتْ لَهُ الْقُلُوبُ الْعِصَابُ. وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(١).

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مِنْ سَعَةِ الْأَخْلَاقِ كُنُوزُ الْأَرْزَاقِ. وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَثْرَةِ الْأَصْفِيَاءِ الْمُسْعِدِينَ، وَقَلَّةِ الْأَعْدَاءِ الْمُجْحِفِينَ.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطِنُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْتُونَ وَيُؤَلَّفُونَ»^(٢). وَحُسْنُ الْخُلُقِ أَنْ يَكُونَ سَهْلَ الْعَرِيكَ، لَيْتِنَ الْجَانِبِ، طَلِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ التَّفُورِ، طَيِّبَ الْكَلِمَةِ. وَقَدْ بَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْأَوْصَافَ فَقَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيْتِنٍ سَهْلٍ طَلِقٍ»^(٣). وَلَمَّا ذَكَرْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ حُدُودًا مُقَدَّرَةً وَمَوَاضِعَ مُسْتَحَقَّةً، مَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَصْفُو وَأَكْدُرُ أَحِبَانَا لِمُخْتَبِرِي
 وَلَيْسَ مُسْتَحْسَنًا صَفُو بِلَا كَدَرِ

وَلَيْسَ يُرِيدُ بِالْكَدَرِ الَّذِي هُوَ الْبِدَاءُ وَشِرَاسَةُ الْخُلُقِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَمٌّ لَا يُسْتَحْسَنُ وَعَيْبٌ لَا يَزْتَضِي. وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْكَفَّ وَالانْتِبَاضَ فِي مَوْضِعٍ يَلَامُ فِيهِ الْمُسَاعِدُ وَيُذَمُّ فِيهِ الْمُوَافِقُ، فَإِذَا كَانَتْ لِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ حُدُودٌ مُقَدَّرَةٌ وَمَوَاضِعُ مُسْتَحَقَّةٌ فَإِنَّ تَجَاوُزَ بِهَا الْحَدَّ صَارَتْ مَلَقًا وَإِنْ عَدَلَ بِهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا صَارَتْ نِفَاقًا. وَالْمَلَقُ ذُلٌّ، وَالنَّفَاقُ لُؤْمٌ، وَلَيْسَ لِمَنْ وَسِمَ بِهِمَا وَدُمَيَّرُورٌ وَلَا أَثَرٌ مُشْكُورٌ.

وَقَدْ رَوَى حَكِيمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَرُّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هُوْلَاءَ بِوَجْهِهِ وَهُوْلَاءَ بِوَجْهِهِ»^(٤). وَرَوَى مَكْحُولٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ وَجْهًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى»^(٥).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عُرْوَةَ: لِأَنَّ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهِهِ وَنِصْفُ لِسَانِهِ عَلَيَّ مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ الْمَنْظَرِ وَعَجْزِ الْمَخْبِرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ وَذَا لِسَانَيْنِ وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

خَلَّ النَّفَاقَ لِأَمْلِيهِ
 وَعَلَيْكَ فَالْتَمِسِ الطَّرِيقَا

(١) أخرجه أحمد ١٥٩/٦، وصححه الشيخ الألباني «الصححة» ٥١٩.

(٢) قواه بشواهد الشيخ الألباني كما في «الصححة» ٧٥١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤١٥/١، وصححه الشيخ الألباني بشواهد كما في الصححة ٩٣٨.

(٤) أخرجه البخاري ٧١٧٩، ومسلم ٢٥٢٦. (٥) أخرجه ابن عدي ٣٢٥/٥.

وَأَزْغَبَ بِنَفْسِكَ أَنْ تُرَى
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ:

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وَدُهُ بِلِسَانِهِ
يُضَاحِكُنِي عَجَبًا إِذَا مَا لَقِيْتُهُ
كَذَلِكَ ذُو الْوَجْهَيْنِ يُرْضِيكَ
وَرَبَّتْ مَا تَغَيَّرَ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْوَطْءُ إِلَى الشَّرَاسَةِ وَالْبَدَاءُ لِأَسْبَابِ عَارِضَةٍ، وَأُمُورٍ طَارِئَةٍ، تَجْعَلُ
اللَّيْنَ حُسُونَةً وَالْوَطْءَ غِلْظَةً وَالطَّلَاقَةَ عُبُوسًا.

فَمِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الْوِلَايَةِ الَّتِي تُحَدِّثُ فِي الْأَخْلَاقِ تَغْيِيرًا، وَعَلَى الْخُلَطَاءِ تَنَكُّرًا، إِمَّا مِنْ لُؤْمٍ
طَبِيعٍ، وَإِمَّا مِنْ ضَيْقِ صَدْرِ. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ تَاهَ فِي وِلَايَتِهِ ذَلَّ فِي عَزَلِهِ. وَقِيلَ: ذُلُّ الْعَزْلِ يُضْحِكُ مِنْ
تِيهِ الْوِلَايَةِ. وَمِنْهَا: الْعَزْلُ فَقَدْ يَسُوءُ بِهِ الْخُلُقُ وَيَضِيقُ بِهِ الصَّدْرُ إِمَّا لِشِدَّةِ أَسْفٍ أَوْ لِقَلَّةِ صَبْرِ. حَكَى
حُمَيْدُ الطَّوِيلُ أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ عَزَلَ عَنْ وِلَايَةٍ فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: إِنِّي وَجَدْتُهَا حُلُوةَ الرِّضَاعِ
مَرَّةً الْفَطَامِ. وَمِنْهَا: الْغِنَى فَقَدْ تَغَيَّرَ بِهِ أَخْلَاقُ اللَّيْمِ بَطْرًا، وَتَسُوءُ طَرَائِفُهُ أَشْرًا. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ نَالَ
اسْتِطَالَ. وَأَنْشَدَ الرَّيَاشِيُّ:

عُظْبَانُ يَغْلَمُ أَنَّ الْمَالَ سَاقٍ لَهُ
فَمَنْ يَكُنْ عَنِ كِرَامِ النَّاسِ يَسْأَلُنِي
وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا أَسْأَلَتْكَ نَسْرَةً
لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ خَلَاتِقًا
وَيَحْسَبُ مَا أَفْسَدَهُ الْغِنَى كَذَلِكَ يُضْلِحُهُ الْفَقْرُ. وَكَتَبَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ ^(١) إِلَى الْحَجَّاجِ أَنَّ أَهْلَ
الشَّامِ قَدْ نَأْتُوا عَلَيْهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ أَقْطَعْ عَنْهُمْ الْأَرْزَاقَ، فَفَعَلَ فَسَاءَتْ حَالُهُمْ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا:
أَفْلَنَّا. فَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ فِيهِمْ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنْ كُنْتَ آتَسْتَ مِنْهُمْ رُشْدًا فَأَجْرِ عَلَيْهِمْ مَا كُنْتَ تُجْرِي.
وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَقْرَ جُنْدُ اللَّهِ الْأَكْبَرَ يُدَلُّ بِهِ كُلُّ جَبَّارٍ عَيْنِدِ يَتَكَبَّرُ.

وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذَلَّ ابْنَ آدَمَ بِثَلَاثٍ مَا طَاطَأَ رَأْسُهُ لِشَيْءٍ»:

(١) قتيبة بن مسلم، أمير خراسان، كان أحد القادة الشجعان، فتح خوارزم وسمرقند وبخارى، توفي سنة ٩٦هـ.

الْفَقْرُ، وَالْمَرَضُ، وَالْمَوْتُ»^(١). وَمِنْهَا: الْفَقْرُ فَقَدْ يَتَغَيَّرُ بِهِ الْخُلُقُ إِمَّا أَنْفَةً مِنْ ذُلِّ الْاِسْتِكَانَةِ أَوْ أَسْفَا عَلَى فَايْتِ الْغَنَى. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا، وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ»^(٢). وَقَالَ أَبُو تَمَّامِ الطَّائِي:

وَأَعْجَبُ حَالَاتِ ابْنِ آدَمَ خَلَقَهُ يَضِلُّ إِذَا فَكَّرَتْ فِي كُنْهِهِ الْفِكْرُ
فَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الْقَلِيلِ بِقَاوُهُ وَيَجْرَعُ مِمَّا صَارَ وَهُوَ لَهُ ذُخْرُ
وَرُبَّمَا تَسَلَّى مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ بِالْأَمَانِيِّ، وَإِنْ قَلَّ صِدْقُهَا، فَقَدْ قِيلَ: فَلَمَّا تَصَدَّقُوا الْأُمِّيَّةَ وَلَكِنْ قَدْ يُعْتَاضُ بِهَا سَلْوَةٌ مِنْ هَمٍّ أَوْ مَسْرَّةٌ بِرَجَاءٍ. وَقَدْ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ:

حَرُّكَ مُنَاكَ إِذَا اغْتَمَمَ سَمَتْ فَبَانَهُنَّ مَسْرَاوِحُ^(٣)
وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا تَمَنَيْتَ بِتِّ اللَّيْلِ مُغْتَبِطًا إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ الْمُفَالِسِ
وَمِنْهَا الْهُمُومُ الَّتِي تَذْهِلُ اللَّبَّ، وَتَشْغَلُ الْقَلْبَ، فَلَا تَتَّبِعُ الْاِحْتِمَالَ وَلَا تَقْوَى عَلَى صَبْرِ. وَقَدْ قِيلَ:
الْهَمُّ كَالسَّمِّ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: الْحُزْنُ كَالذَّاءِ الْمَحْزُونِ فِي فُؤَادِ الْمَحْزُونِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:
هُمُومُكَ بِالْعَيْشِ مَقْرُونَةٌ فَمَا تَقْطَعِ الْعَيْشَ إِلَّا بِهَمِّ
إِذَا تَسَّمَ أَمْرٌ بَدَا نَفْصُهُ تَرَقَّبَ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ
إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَازَعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ
وَحَامَ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهَ سَرِيعُ النَّقْمِ
حَالَاوَةٌ ذُنْيَاكَ مَسْمُومَةٌ فَمَا تَأْكُلُ الشَّهْدَ إِلَّا بِسَمِّ
فَكَمْ قَدَرٌ دَبَّ فِي مُهْلَةٍ فَلَمْ يَعْلَمْ النَّاسُ حَتَّى هَجَمَ
وَمِنْهَا الْأَمْرَاضُ الَّتِي يَتَغَيَّرُ بِهَا الطَّبْعُ مَا يَتَغَيَّرُ بِهَا الْجَسْمُ، فَلَا تَبْقَى الْأَخْلَاقُ عَلَى اِعْتِدَالٍ وَلَا يُقَدَّرُ مَعَهَا عَلَى اِحْتِمَالٍ. وَقَدْ قَالَ الْمُتَسَبِّي:

أَلَّةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَسَبَابُ فَإِذَا وَلَّسَاعِنَ الْمَرْءِ وَلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفْ فَمَا مَ لَّ حَيَاةٍ وَإِنَّمَا الضَّعْفُ مَلَأَ

(١) لم يرو مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ويبدو أنه من كلام بعض السلف.

(٢) سبق تخريجه وبيان ضعفه. (٣) انظر ديوان أبي العتاهية ص ٤٦.

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْتًا ذَاتَ خِذْرِ أَرَادَتْ الْمَوْتَ بَعْلًا
أَبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا مَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا

وَمِنْهَا عَلُوُّ الشَّنِّ وَحُدُوثُ الْهَرَمِ لِتَأْتِيهِ فِي آلَةِ الْجَسَدِ كَذَلِكَ يَكُونُ تَأْتِيهِ فِي أَخْلَاقِ النَّفْسِ،
فَكَمَا يَضْعُفُ الْجَسَدُ عَنِ اخْتِمَالِ مَا كَانَ يُطِيقُهُ مِنْ أَثْقَالٍ فَكَذَلِكَ تَعَجِزُ النَّفْسُ عَنِ أَثْقَالِ مَا كَانَتْ
تَضِيرُ عَلَيْهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْوَفَاقِ، وَمَضِيقِ الشَّقَاقِ. وَكَذَلِكَ مَا صَاهَاهُ. وَقَالَ مَنْصُورُ النَّمِرِيِّ:

مَا كُنْتُ أَوْفِي شَبَابِي كُنْهَ عِزَّتِهِ حَتَّى مَضَى فَيَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعٌ
أَصْبَحْتُ لَمْ تُطْعِمِي نُكْلَ الشَّبَابِ وَلَمْ تَشْجِي لِفُصْنِهِ فَالْعُدْرُ لَا يَقَعُ
مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَمَا أَبْقَى حَلَاوَةَ ذِكْرَاهُ الَّتِي تَدْعُ
مَا وَاجَهَ الشَّيْبُ مِنْ عَيْنٍ وَإِنْ إِلَّا لَهَا نَبْوَةٌ عَنْهُ وَمُزْتَدَعٌ
قَدْ كَذتْ تَقْضِي عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَسَى لَوْلَا يُعَزِّيكَ أَنَّ الْعُمَرَ مُنْقَطِعٌ

فَهَذِهِ سَبْعَةُ أَسْبَابٍ أَحْدَثَتْ سُوءَ خُلُقٍ كَانَ عَامًّا. وَهَاهُنَا سَبَبٌ خَاصٌّ يُحْدِثُ سُوءَ خُلُقٍ خَاصًّا
وَهُوَ الْبُغْضُ الَّذِي تَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ فَتُحْدِثُ نُفُورًا عَلَى الْمُبْغِضِ، فَيُؤُولُ إِلَى سُوءِ خُلُقٍ يَخُصُّهُ دُونَ
غَيْرِهِ. فَإِذَا كَانَ سُوءُ الْخُلُقِ حَادِثًا بِسَبَبِ كَانَ زَوَالُهُ مَقْرُونًا بِزَوَالِ ذَلِكَ السَّبَبِ، ثُمَّ بِالضَّدِّ.



الفصل الثالث في الحياء

اعْلَمَنَّ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مَعَانٍ كَامِنَةٌ تُعْرَفُ بِسِمَاتٍ ذَالَةٍ كَمَا قَالَتْ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهَا: تُخْبِرُ عَنْ
مَجْهُولِهِ مَرَاتَهُ. وَكَمَا قَالَ سَلَمٌ بْنُ عَمْرٍو الشَّاعِرِ:

لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ عَنْ خَلَائِقِهِ فِي وَجْهِهِ شَاهِدٌ مِنَ الْخَبِيرِ

فَسِمَةُ الْخَيْرِ الدَّعْمَةُ وَالْحَيَاءُ، وَسِمَةُ الشَّرِّ الْفِجْهَةُ^(١) وَالْبِدْءُ. وَكَفَى بِالْحَيَاءِ خَيْرًا أَنْ يَكُونَ عَلَى
الْخَيْرِ دَلِيلًا، وَكَفَى بِالْفِجْهَةِ وَالْبِدْءِ شَرًّا أَنْ يَكُونَ إِلَى الشَّرِّ سَبِيلًا. وَقَدْ رَوَى حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ عَنْ
أَبِي أَمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ وَالْعِيَّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْبِدْءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ
مِنَ التَّفَاقُقِ»^(٢). وَيُشْبَهُ أَنْ يَكُونَ الْعِيَّ فِي مَعْنَى الصَّمْتِ، وَالْبَيَانُ فِي مَعْنَى التَّشَادُقِ، كَمَا جَاءَ فِي
الْحَدِيثِ الْآخَرَ: «إِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ التَّرْتَارُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ الْمُتَسَدِّقُونَ»^(٣). وَرَوَى أَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبِدْءُ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ
فِي النَّارِ»^(٤). وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: حَيَاةُ
الْوَجْهِ بِحَيَاتِهِ، كَمَا أَنَّ حَيَاةَ الْعُرْسِ بِمَاتِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ الْعُلَمَاءِ: يَا عَجَبًا كَيْفَ لَا تَسْتَحْيِي مِنْ
كَثْرَةِ مَا لَا تَسْتَحْيِي وَتَبْقَى مِنْ طَوْلٍ مَا لَا تَبْقَى. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ

حَيَاؤُكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ وَإِنَّمَا بَدُلْ عَلَى فِعْلِ الْكَرِيمِ حَيَاؤُهُ^(٥)

وَلَيْسَ لِمَنْ سَلِبَ الْحَيَاءَ صَادٌّ عَنْ قَبِيحٍ وَلَا زَاجِرٌ عَنْ مَحْظُورٍ، فَهُوَ يَتَقَدَّمُ عَلَى مَا يَشَاءُ وَيَأْتِي مَا

(١) الفجة: من الوقاحة وقلة الحياء.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٩، والترمذي ٢٠٢٧، وصححه الشيخ الألباني «صحيح الترغيب» رقم ٢٦٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠١٨، وحسنه الشيخ الألباني «الصحيح» ٧٩١.

(٤) أخرجه الترمذي ٢٠٠٩، وصححه الشيخ الألباني «صحيح الجامع» رقم ٣١٩٩.

(٥) انظر روضة العقلاء لأبي حاتم البستي، ونسبها للبغدادي.

يَهْوَى، وَبِذَلِكَ جَاءَ الْخَبِيرُ. رَوَى شُعْبَةُ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ رَبِيعٍ عَنْ أَبِي مَنْصُورِ الْبَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(١). وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ إِغْرَاءً يَفْعَلُ الْمُعَاصِي عِنْدَ قَلْبِ الْحَيَاءِ كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ مَنْ جَهَلَ مَعَانِيَ الْكَلَامِ وَمَوَاضِعَاتِ الْخُطَابِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا الْخَبِيرِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِذَا لَمْ تَخُشْ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي وَلَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مَعْنَى هَذَا الْخَبِيرِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّاشِي فِي أُصُولِ الْفِقْهِ: مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنْ مَنْ لَمْ يَسْتَحْ دَعَاهُ تَرَكَ الْحَيَاءَ إِلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ لَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادِعٌ. فَلَيْسَتْ حِي الْمَرْءُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ يَزِدُّهُ. وَسَمِعْتُ مَنْ يَخْكِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ الرَّازِيِّ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ إِذَا عَرَضَتْ عَلَيْكَ أَفْعَالُكَ الَّتِي هَمَمْتَ بِفِعْلِهَا فَلَمْ تَسْتَحْ مِنْهَا لِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ مِنْهَا. فَجَعَلَ الْحَيَاءَ حَكْمًا عَلَى أَفْعَالِهِ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَسَنٌ. وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَخْرَجَ الذَّمِّ لَا مَخْرَجَ الْمَدْحِ. لَكِنْ قَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ بِمَا يُضَاهِي الْقَوْلَ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «مَا أَحْبَبْتُ أَنْ تَسْمَعَهُ أَذْنَاكَ فَأْتِيهِ، وَمَا كَرِهْتُ أَنْ تَسْمَعَهُ أَذْنَاكَ فَاجْتَنِبْهُ»^(٢). وَيَجُوزُ أَنْ يُحْمَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى الْمَعْنَى الصَّرِيحِ فِيهِ وَيَكُونُ التَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ أَصَحَّ إِذْ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ أَحَادِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهَا مُتَّفِقَةً الْمَعَانِي بَلْ اخْتَلَفَ مَعَانِيهَا أَدْخَلَ فِي الْحِكْمَةِ وَأَبْلَغَ فِي الْفَصَاحَةِ إِذَا لَمْ يُضَادَّ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَيَاءَ فِي الْإِنْسَانِ قَدْ يَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ:

* أَحَدُهَا: حَيَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. * وَالثَّانِي: حَيَاؤُهُ مِنَ النَّاسِ.

* وَالثَّلَاثُ: حَيَاؤُهُ مِنْ نَفْسِهِ. فَأَمَّا حَيَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَكُونُ بِأَمْتِنَالِ أَوْامِرِهِ وَالْكَفِّ عَنْ زَوَاجِرِهِ. وَرَوَى ابْنُ مَنْصُورٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ ﷻ حَقَّ الْحَيَاءِ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ نَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ؟ قَالَ: مَنْ حَفِظَ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَابْتَلَنَ وَمَا وَعَى، وَتَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، وَذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، فَقَدْ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ ﷻ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَبْلَغِ الْوَصَايَا. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَاوَرَدِيُّ، مُصَنِّفُ الْكِتَابِ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ ذَاتَ لَيْلَةٍ

(١) أخرجه البخاري ٣٤٨٣. (٢) ذكره السيوطي في جمع الجوامع ولم يعزه لأحد.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن رقم ٢٤٥٨، وحسنه الشيخ الألباني «صحيح الجامع» رقم ٩٣٥.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي: فَقَالَ: اسْتَحْ مِنَ اللَّهِ ﷻ حَقَّ الْحَيَاءِ. ثُمَّ قَالَ: تَغَيَّرَ النَّاسُ. قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الصَّبِيِّ فَأَرَى مِنْ وَجْهِ الْبَشَرِ وَالْحَيَاءِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ الْيَوْمَ فَلَا أَرَى ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. ثُمَّ تَكَلَّمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِوَصَايَا وَعِظَاتٍ تَصَوَّرْتُهَا، وَأَذْهَلَنِي الشُّرُورُ عَنْ حِفْظِهَا وَوَدِدْتُ أَنِّي لَوْ حَفِظْتُهَا. فَلَمْ يَبْدَأْ بِشَيْءٍ ﷻ قَبْلَ الرَّصِيَّةِ بِالْحَيَاءِ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَجَعَلَ مَا سَلَبَهُ الصَّبِيُّ مِنَ الْبَشَرِ وَالْحَيَاءِ سَبَبًا لِتَغَيَّرِ النَّاسِ، وَخَصَّ الصَّبِيَّ؛ لِأَنَّ مَا يَأْتِيهِ بِالطَّنْعِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ. فَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيَّ مِنْ هَدَى أُمَّتِهِ، وَتَابَعَ إِنْذَارَهَا، وَقَطَعَ أَعْدَارَهَا، وَأَوْصَلَ تَأْدِيبَهَا، وَحَفِظَ تَهْدِيبَهَا، وَجَعَلَ لِكُلِّ عَضْرٍ حَظًّا مِنْ رَوَاجِرِهِ، وَنَصِيبًا مِنْ أَوَامِرِهِ. أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَى قَبُولِهَا بِالْعَمَلِ، وَعَلَى اسْتِدَامَتِهَا بِالتَّوْفِيقِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَلْقَمَةَ بِنَ عُلَاثَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عِظْنِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْتَحْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى اسْتِحْيَاءَكَ مِنْ ذَوِي الْهَيْبَةِ مِنْ قَوْمِكَ» (١). وَهَذَا الْحَيَاءُ يَكُونُ مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ وَصِحَّةِ الْبَقِيَّةِ. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَلَّةُ الْحَيَاءِ كُفْرٌ» (٢). يَعْني مِنَ اللَّهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ. وَقَالَ ﷺ: «الْحَيَاءُ نِظَامُ الْإِيمَانِ فَإِذَا انْحَلَّ نِظَامُ الشَّيْءِ تَبَدَّدَ مَا فِيهِ وَتَفَرَّقَ» (٣). وَأَمَّا حَيَاؤُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَكُونُ بِكَفِّ الْأَذَى وَتَرْكِ الْمُجَاهِرَةِ بِالْقَبِيحِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اتَّقَى اللَّهَ اتَّقَى النَّاسَ» (٤). وَرُوِيَ أَنَّ حُذَيْفَةَ بِنَ الْيَمَانِ أَتَى الْجُمُعَةَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ انْصَرَفُوا فَاتَّقَنَّاكَ الطَّرِيقَ عَنِ النَّاسِ، وَقَالَ: لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ. وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرَيْدٍ:

وَلَقَدْ أَضْرَفُ الْفُؤَادَ عَنِ الشَّيْءِ حَيَاءً وَحُبًّا فِي السَّوَادِ
أَمْسِكُ النَّفْسَ بِالْعَفَافِ وَأُمْسِي ذَاكِرًا فِي غَدِ حَدِيثِ الْأَعْيَادِ

وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْحَيَاءِ قَدْ يَكُونُ مِنْ كَمَالِ الْمُرُوءَةِ وَحُبِّ الشَّئَاءِ. وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «مَنْ أَلْفَى جَلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ» (٥). يَعْني - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِقَلَّةِ مُرُوءَتِهِ، وَظُهُورِ شَهْوَتِهِ. وَرَوَى الْحَسَنُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ ﷺ: «إِنَّ مُرُوءَةَ الرَّجُلِ مَمْسَاةٌ وَمَذْخَلَةٌ وَمَخْرُجَةٌ وَمَجْلِسَةٌ وَإِلْفَةٌ وَمَجْلِسَةٌ». وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ
إِذَا رُزِقَ الْفَنَى وَجْهَهَا وَقَاحًا تَقَلَّبَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ
وَقَالَ آخَرُ:

(١) فواء الشيخ الألباني في الصحيحة ٧٤١. (٢) ذكره الحكيم الترمذي ٤٨/٤.

(٣) لم أفق عليه. (٤) كالذي قبله.

(٥) قال الشيخ الألباني: ضعيف جدًا الضعيفة ٥٨٥.

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا وَلَمْ تَخْشَ خَالِقًا وَتَسْتَحِي مَخْلُوقًا فَمَا سِئْتَ فَاصْتَعِ
وَأَمَّا حَيَاؤُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَيَكُونُ بِالْعِفَّةِ وَصِيَانَةِ الْخَلَوَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لِيَكُنْ اسْتِحْيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِحْيَاؤِكَ مِنْ غَيْرِكَ.
وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَنْ عَمِلَ فِي السِّرِّ عَمَلًا يَسْتَحِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ.
وَدَعَا قَوْمٌ رَجُلًا كَانَ يَأْلَفُ عَشْرَتَهُمْ، فَلَمْ يُجِبْهُمْ، وَقَالَ: إِنِّي دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ فِي الْأَرْبَعِينَ وَأَنَا
أَسْتَحِي مِنْ سِنِي. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

فَسِرِّي كَمَاغْلَابِي وَتِلْكَ خَلِيقَتِي وَظُلْمَةَ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِي

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَيَاءِ قَدْ يَكُونُ مِنْ فَضِيلَةِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّرِيرَةِ. فَمَتَى كَمَلَ حَيَاءُ الْإِنْسَانِ مِنْ
وُجُوهِهِ الثَّلَاثَةِ، فَقَدْ كَمَلَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَصَارَ بِالْفَضْلِ مَشْهُورًا،
وَبِالْجَمِيلِ مَذْكُورًا. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَإِنِّي لِثِنِينِي عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَى وَعَنْ شَمِّ ذِي الْقُرْبَى خَلَاتِي أَرْبَعُ
حَيَاءٍ وَإِسْلَامٍ وَتَقْوَى وَطَاعَةٍ لِرَبِّي وَمِثْلِي مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

وَإِنْ أَخَلَّ بِأَحَدٍ وَجُوهُ الْحَيَاءِ لِحَقِّهِ مِنَ النَّقْصِ بِإِخْلَالِهِ بِقَدْرِ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِكَمَالِهِ.
وَقَدْ قَالَ الرَّيَاشِيُّ: يُقَالُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ؓ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الشُّعْرِ:

وَحَاجَةٌ دُونَ أُخْرَى قَدْ سَنَحَتْ لَهَا جَعَلْتُهَا لِتَلْتِي أَحْفَيْتُ عُثْوَانَا
وَلِإِنْسِي لِأَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسَطَ الْقَوْمِ عُزْبَانَا



الفصل الرابع في الحلم والغضب

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ حَارِثِ الْهَلَالِيِّ أَنَّ جَبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي آتَيْتُكَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: ﴿ حَذِّ الْعَمَوَ وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرَضٌ عَنِ الْجَهْلِيَّاتِ ﴾. وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا قَالَ: لَا أَذْرِي حَتَّى أَسْأَلَ الْعَالِمَ.

ثُمَّ عَادَ جَبْرِيلُ، وَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُغْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ». وَرَوَى هِشَامٌ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْعِزْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْصَمٍ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي تَصَدَّقْتُ بِعِزِّ عِبَادِكَ»^(١).

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيَّ، وَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبِدِيءَ»^(٢). وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَلِمَ سَادَ، وَمَنْ تَفَهَّمَ ازْدَادًا»^(٣). وَقَالَ بَعْضُ الْأُدْبَاءِ: مَنْ غَرَسَ شَجَرَةَ الْحِلْمِ اجْتَنَّتْ ثَمَرَةَ السُّلْمِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: مَا ذَبَّ عَنِ الْأَعْرَاضِ كَالصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَحِبُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ جَهْدِي وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أَعَابَا
وَأَصْفَحُ عَنِ سَبَابِ النَّاسِ حِلْمًا وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السَّبَابَا
وَمَنْ هَابَ الرَّجَالَ تَهَيَّبُوهُ وَمَنْ حَقَرَ الرَّجَالَ فَلَسَ يُهَابَا

فَالْحِلْمُ مِنْ أَشْرَفِ الْأَخْلَاقِ وَأَحَقُّهَا بِذَوِي الْأَلْبَابِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ سَلَامَةِ الْعِرْضِ وَرَاحَةِ الْجَسَدِ وَاجْتِنَابِ الْحَمْدِ.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٨٦، ٤٨٨٧، وضعفه الشيخ الألباني «الإرواء» ٢٣٦٦.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» ٥٥ مرسلاً، وانظر «الصحيح» ١٣٢٠.

(٣) تقدم، وهذا ليس مرفوعاً، وإنما ورد منسوباً لعلي بن أبي طالب ﷺ في كتاب كتبه لابنه الحسن ﷺ.

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ^(١) -: أَوَّلُ عِيُوضِ الْحَلِيمِ عَنِ حِلْمِهِ أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ. وَخَدُّ الْحِلْمِ ضَبْطُ النَّفْسِ عَنِ هَيْجَانِ الْغَضَبِ. وَهَذَا يَكُونُ عَنِ بَاعِثٍ وَسَبِّبٍ. وَأَسْبَابُ الْحِلْمِ الْبَاعِثَةُ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ عَشْرَةٌ:

* أَحَدُهَا: الرَّحْمَةُ لِلْجَهَالِ وَذَلِكَ مِنْ خَيْرِ يُوَافِقُ رِقَّةً.

وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحَكَمِ: مِنْ أَوْكِدِ الْحِلْمِ رَحْمَةُ الْجَهَالِ. وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه لِرَجُلٍ أَسْمَعَهُ كَلَامًا: يَا هَذَا لَا تُعْرِقَنَّ فِي سَبْتِنَا، وَدَعْ لِلصُّلْحِ مَوْضِعًا، فَإِنَّا لَا نَكْفِيهِ مِنْ عَصَى اللَّهِ فِينَا بِأَكْثَرٍ مِنْ أَنْ نُطِيعَ اللَّهَ عز وجل فِيهِ. وَشَتَمَ رَجُلٌ الشَّعْبِيَّ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللَّهُ لِي، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَمَا قُلْتَ فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ. وَاعْتَاطَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَلَى خَادِمٍ لَهَا ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَتْ: لِلَّهِ دَرُّ التَّقْوَى مَا تَرَكَتُ لِذِي عَيْظٍ شِفَاءً. وَقَسَمَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه قَطَافًا أَعْطَى سَيِّخًا مِنْ أَهْلِ دِمَشْقٍ قَطِيفَةً فَلَمْ تُعْجِبْهُ، فَحَلَفَ أَنْ يَضْرِبَ بِهَا رَأْسَ مُعَاوِيَةَ. فَآتَاهُ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَوْفِ بِبَنْدِكَ وَكَلِمَةُ الشَّيْخِ بِالشَّيْخِ.

* وَالثَّانِي: مِنْ أَسْبَابِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِنْتِصَارِ وَذَلِكَ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ وَحُسْنِ الثَّقَةِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ سُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»^(٢).

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَيْسَ مِنَ الْكِرَامِ عُقُوبَةُ مَنْ لَا يَجِدُ امْتِنَاعًا مِنَ السَّطْوَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: أَحْسَنُ الْمَكَارِمِ عَفْوُ الْمُقْتَدِرِ، وَجُودُ الْمُفْتَقِرِ.

* وَالثَّلَاثُ: مِنْ أَسْبَابِهِ التَّرْفُّعُ عَنِ السَّبَابِ وَذَلِكَ مِنْ شَرَفِ النَّفْسِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ.

كَمَا قَالَتْ الْحُكَمَاءُ: شَرَفُ النَّفْسِ أَنْ تَحْمِلَ الْمَكَارَةَ كَمَا تَحْمِلُ الْمَكَارِمَ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى يَحْيَى عليه السلام سَيِّدًا لِحِلْمِهِ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا يَبْلُغُ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرَّمُوا حَتَّى يَبْذُلُوا وَإِنْ عَزَّوْا لِأَقْوَامٍ
وَيَسْتُمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلٍّ وَلَكِنْ صَفْحَ أَخْلَامٍ

* وَالرَّابِعُ: مِنْ أَسْبَابِهِ الْاسْتِهَانَةُ بِالْمُسِيءِ وَذَلِكَ عَنِ ضَرْبِ مِنَ الْكِبَرِ وَالْإِعْجَابِ، مَا حُكِيَ عَنِ مُضْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ لَمَّا وَلِيَ الْعِرَاقَ جَلَسَ يَوْمًا لِعَطَاءِ الْجُنْدِ وَأَمَرَ مُتَابِدِيَهُ فَنَادَى أَيْنَ عَمْرُو بْنُ جُرْمُوزٍ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ أَبَاهُ الزُّبَيْرَ، فِقِيلَ لَهُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّهُ قَدْ تَبَاعَدَ فِي الْأَرْضِ.

فَقَالَ: أَوْ يَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنِّي أَفِيدُهُ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ؟ فَلْيَظْهَرِ أَمَّا لِيَأْخُذَ عَطَاءَهُ مُوقِفًا، فَعَدَّ النَّاسُ ذَلِكَ مِنْ مُسْتَحْسَنِ الْكِبَرِ. وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الرُّعَمَاءِ فِي شِعْرِهِ:

(١) تقدم التنبيه على هذه العبارة، وانظر «ابن كثير» عند الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

(٢) لم أقف عليه.

أَوْكَلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ طَرْدَتْهُ إِنَّ الذُّبَابَ إِذَا عَلَيَّ كَرِيمٌ
وَأَكْثَرُ رَجُلٍ مِنْ سَبِّ الْأَخْتَفِ وَهُوَ لَا يُجِيبُهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا مَنَعَهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي عَلَيْهِ. وَفِي
مِثْلِهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

نَجَا بِكَ لَوْمَكَ مَنْجَى الذُّبَابِ حَمَمُهُ مَقَاذِيرُهُ أَنْ يُنَالَا
وَأَسْمَعَ رَجُلٌ ابْنَ هُبَيْرَةَ فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَاكَ أَعْنَى. فَقَالَ لَهُ: وَعَنْكَ أَعْرَضُ. وَفِي
مِثْلِهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

فَاذْهَبِ فَإِنَّكَ طَلِيقُ عَرِضِكَ إِنَّهُ عَرِضٌ عَزَزْتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلٌ
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِبَابَتِهِ الشُّكُوتُ
سَكَتٌ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي عَيْتٌ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيْتُ

* وَالْخَامِسُ: مِنْ أَسْبَابِهِ الْأَسْتِحْيَاءُ مِنْ جَزَاءِ الْجَوَابِ. وَهَذَا يَكُونُ مِنْ صِيَانَةِ النَّفْسِ وَكَمَالِ
الْمُرُوءَةِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: اخْتِمَالُ السَّفِيهِ خَيْرٌ مِنَ التَّحَلِّي بِصُورَتِهِ، وَالْإِغْضَاءُ عَنِ الْجَاهِلِ خَيْرٌ
مِنْ مُشَاكَلَتِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَا أَفْحَشَ حَلِيمٌ وَلَا أَوْحَشَ كَرِيمٌ. وَقَالَ لَقِيْبُ بْنُ زُرَّازَةَ:

وَقُلْ لِيَبِي سَعْدٍ فَمَا لِي وَمَا لَكُمْ تُرْقُونُ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتِقُوا
أَعْرَكُمْ أَنِّي بِأَحْسَنِ شَيْمَةٍ بَصِيرٌ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ
وَإِنْ تَكُ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَقَهَرْتَنِي هَبَيْتَا مَرِيئًا أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَخْدُقُ

وَالسَّادِسُ: مِنْ أَسْبَابِهِ التَّنْفِضُ عَلَى السَّبَابِ. فَهَذَا يَكُونُ مِنَ الْكَرَمِ وَحُبِّ التَّأَلُّفِ، كَمَا قِيلَ
لِلْإِسْكَانْدَرِ: إِنَّ فُلَانًا وَفُلَانًا يُنْقِصَانِكَ وَيَثْلُبَانِكَ فَلَوْ عَاقَبْتَهُمَا. فَقَالَ: هُمَا بَعْدَ الْعُقُوبَةِ أَعْدَرُ فِي تَنْقِصِي
وَتَلْبِي. فَكَانَ هَذَا تَفْضُلًا مِنْهُ وَتَأَلُّفًا.

وَقَدْ حُكِيَ عَنِ الْأَخْتَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَادَانِي أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ بِأَخْدِي ثَلَاثِ
خِصَالٍ: إِنْ كَانَ أَعْلَى مِنِّي عَرَفْتُ لَهُ قَدْرَهُ، وَإِنْ كَانَ دُونِي رَفَعْتُ قَدْرِي عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَظِيرِي تَفَضَّلْتُ
عَلَيْهِ. فَأَخَذَهُ الْخَلِيلُ، فَنَظَّمَهُ شِعْرًا فَقَالَ:

سَأَلْتُمْ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَأَخْلُمُ دَائِبًا
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَبِإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا
وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
شَرِيفٌ وَمَنْشُورٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمٌ
وَاتَّبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمٌ
أَصُونُ بِهِ عِرْضِي وَإِنْ لَمْ لَانِمُ
تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْفَضْلَ بِالْفَخْرِ حَاكِمٌ

وَالسَّابِعُ: مِنْ أَسْبَابِهِ اسْتِنكَافُ السُّبَابِ وَقَطْعُ السُّبَابِ. وَهَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَزْمِ، كَمَا حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِضِرَارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ: وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ وَاحِدَةً لَسَمِعْتَ عَشْرًا. فَقَالَ لَهُ ضِرَارٌ: وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً. وَحُكِيَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ^(١) - قَالَ لِعَامِرِ بْنِ مُرَّةَ - الزُّهْرِيِّ: مَنْ أَخَمَقُ النَّاسِ؟ قَالَ: مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ أَغْفَلُ النَّاسِ. قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَنْ أَغْفَلُ النَّاسِ؟ قَالَ مَنْ لَمْ يَتَجَاوَزِ الصَّمْتِ فِي عُقُوبَةِ الْجُهَالِ. وَقَالَ الشُّعْبِيُّ: مَا أَدْرَكْتُ أُمَّي فَأَبْرَأَهَا، وَلَكِنْ لَا أَسُبُّ أَحَدًا فَيَسْتَبْهَأَ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: فِي إِعْرَاضِكَ صَوْنٌ أَعْرَاضِكَ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَفِي الْحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّفِيهِ عَنِ الْأَدَى
فَتَنَدَمَ إِذْ لَا تَنْفَعُكَ نَدَامَةٌ
وَقَالَ آخَرُ:

قُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ
وَالثَّامِنُ: مِنْ أَسْبَابِهِ الْخَوْفُ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْجَوَابِ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ وَرُبَّمَا أَوْجَبَهُ الرَّأْيُ وَاقْتِضَاءُ الْحَزْمِ.

وَقَدْ قِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: الْحِلْمُ حِجَابُ الْأَقَاتِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أُرْفُقُ إِذَا خِفْتُ مِنْ ذِي هَفْوَةٍ خَرَقًا
لَيْسَ الْحَلِيمُ كَمَنْ فِي أَمْرِهِ خَرَقٌ
وَالثَّاسِعُ: مِنْ أَسْبَابِهِ الرَّعَايَةُ لِيَدِّ سَالِفَةٍ، وَحُرْمَةٌ لِأَزْمَةٍ. وَهَذَا يَكُونُ مِنَ الْوَفَاءِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ، وَقَدْ قِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: أَكْرَمُ الشَّيْمِ أَرْعَاهَا لِلدِّمِمْ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الْوَفَاءَ عَلَى الْكَرِيمِ فَرِيضَةٌ
وَاللُّؤْمُ مَفْرُورٌ بِذِي الْإِخْلَافِ

(١) تقدم قريبًا التنبيه على هذه العبارة.

وَتَرَى الْكَرِيمَ لِمَنْ يُعَاشِرُ مُنْصِفاً وَتَرَى اللَّيْمَ مُجَانِبَ الْإِنصَابِ

وَالْعَاشِرُ: مِنْ أَسْبَابِهِ الْمَكْرُ وَتَوَقُّعُ الْفُرْصِ الْخُلْفِيَّةِ. وَهَذَا يَكُونُ مِنَ الدَّهَاءِ. وَقَدْ قِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: مَنْ ظَهَرَ غَضَبُهُ قَلَّ كَيْدُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: غَضِبَ الْجَاهِلُ فِي قَوْلِهِ، وَغَضِبَ الْعَاقِلُ فِي فِعْلِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِذَا سَكَتَ عَنِ الْجَاهِلِ فَقَدْ أَوْسَعَتْهُ جَوَابًا وَأَوْجَعَتْهُ عِقَابًا. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ قَتَادَةَ:

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَتَحْلُمُ رَأَيْنَا وَنَشْتُمُ بِالْأَنْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَلِلْكَفِّ عَنِ شْتِمِ اللَّيْمِ تَكْرُمًا أَضْرُّ لَهُ مِنْ شْتِمِهِ حِينَ يَشْتُمُ

فَهَذِهِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ تَدْعُو إِلَى الْحِلْمِ. وَبَعْضُ الْأَسْبَابِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ. وَلَيْسَ إِذَا كَانَ بَعْضُ أَسْبَابِهِ مَفْضُولًا مَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ نَتِيجَتُهُ مِنَ الْحِلْمِ مَذْمُومَةً. وَأَمَّا الْأَوْلَى بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوهُ لِلْحِلْمِ أَفْضَلُ أَسْبَابِهِ، وَإِنْ كَانَ الْحِلْمُ كُلُّهُ فَضْلاً. وَإِنْ عَرِيَ عَنِ أَحَدِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ كَانَ ذُلًّا وَلَمْ يَكُنْ حِلْمًا، لِأَنَّهَا قَدْ ذَكَرْنَا فِي حَدِّ الْحِلْمِ أَنَّهُ ضَبْطُ النَّفْسِ عَنِ هَيْجَانِ الْعَضْبِ، فَإِذَا فَقَدَ الْعَضْبَ لِسَمَاعٍ مَا يُغَضِبُ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ذُلِّ النَّفْسِ وَقَلَّةِ الْحَمِيَّةِ. وَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: ثَلَاثَةٌ لَا يُعْرَفُونَ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: لَا يُعْرَفُ الْجَوَادُ إِلَّا فِي الْعُسْرَةِ، وَالشُّجَاعُ إِلَّا فِي الْحَرْبِ، وَالْحَلِيمُ إِلَّا فِي الْغَضَبِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَيْسَتْ الْأَخْلَامُ فِي حَالِ الرُّضَى إِنَّمَا الْأَخْلَامُ فِي حَالِ الْغَضَبِ

وَقَالَ آخَرُ:

مَنْ يَدْعِي الْحِلْمَ أَغْضِبُهُ لِتَعْرِفَهُ لَا يُعْرَفُ الْحِلْمُ إِلَّا سَاعَةَ الْغَضَبِ

وَأَنْشَدَ النَّبِيعَةُ الْجَعْدِيَّةُ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَةٍ أَنْ يُكَذَّرَا

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْزَدَ الْأَمْرَ أَضْدَرَا

فَلَمْ يُتَكْرَمْ ﷺ قَوْلُهُ عَلَيْهِ ^(١).

وَمَنْ فَقَدَ الْغَضَبَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُغْضَبَةِ حَتَّى اسْتَوَتْ حَالَتَاهُ قَبْلَ الْإِغْضَابِ وَبَعْدَهُ، فَقَدْ عَدِمَ مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ الشُّجَاعَةَ، وَالْأَنْفَةَ، وَالْحَمِيَّةَ، وَالغَبِيرَةَ، وَالِدَّفَاعَ، وَالْأَخْذَ بِالنَّارِ؛ لِأَنَّهَا خِصَالُ مُرَكَّبَةٍ مِنَ الْعَضْبِ. فَإِذَا عَدِمَهَا الْإِنْسَانُ هَانَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ لِبَاقِي فَضَائِلِهِ فِي النَّفْسِ مَوْضِعٌ، وَلَا لِوُفُورِ حِلْمِهِ فِي

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٣٩، وقال: «رواه البزار، وفيه يعلي بن الأشدق وهو ضعيف» اهـ.

الْقُلُوبِ مَوْقِعٌ. وَقَدْ قَالَ الْمَنْصُورُ: إِذَا كَانَ الْحِلْمُ مَفْسَدَةً كَانَ الْعَفْوُ مَعْجَزَةً. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَفْوُ يُفْسِدُ مِنَ اللَّئِيمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَكْرَمُوا سُفَهَاءَكُمْ فَإِنَّهُمْ يَقُونَكُمْ الْعَارَ وَالشَّارَ. وَقَالَ مُضْعَبُ بْنُ الرَّبِيعِ: مَا قَلَّ سُفَهَاءُ قَوْمٍ إِلَّا ذَلُّوا. وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِي:

وَالْحَرْبُ تَرْكَبُ رَأْسَهَا فِي مَشْهَدٍ عَدْلُ السَّفِيهِ بِهِ بِالْفِ حَلِيمٍ

وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ إِغْرَاءً بِتَحْكُمِ الْغَضَبِ وَالانْقِيَادِ إِلَيْهِ عِنْدَ حُدُوثِ مَا يُغْضِبُ، فَيَكْسِبُ بِالْانْقِيَادِ لِلْغَضَبِ مِنَ الرَّذَائِلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَلْبِهُ عَدَمُ الْغَضَبِ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَلَكِنْ إِذَا نَارَ بِهِ الْغَضَبُ عِنْدَ هُجُومِ مَا يُغْضِبُهُ كَفَّ سَوْرَتَهُ بِحَزْمِهِ، وَأَطْفَأَ نَائِرَتَهُ بِحِلْمِهِ، وَوَكَّلَ مَنْ اسْتَحَقَّ الْمُقَابَلَةَ إِلَى غَيْرِهِ.

وَلَمْ يَعْدَمْ مُسِينًا مُكَافِيًا كَمَا لَمْ يَعْدَمْ مُحْسِنًا مُجَازِيًا. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: دَخَلَ بَيْتًا مَا أَخْرَجَ مِنْهُ. أَيْ إِنْ أَخْرَجَ مِنْهُ خَيْرٌ دَخَلَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَخْرَجَ مِنْهُ شَرٌّ دَخَلَهُ شَرٌّ. وَأَنْشَدَ ابْنُ دُرَيْدٍ عَنْ أَبِي حَاتِمٍ:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً فِعْرُضُكَ لِلْجُهَّالِ غَنَمٌ مِنَ الْغَنَمِ

فَعَمَّ عَلَيْهِ الْجِلْمُ وَالْجَهْلُ وَالْقِهْ بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْعَدَاوَةِ وَالسَّلَامِ

إِذَا أَنْتَ جَارَيْتَ السَّفِيهَ كَمَا جَزَى فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمٍ

وَلَا تُغْضِبَنَّ عِرْضَ السَّفِيهِ وَدَارِهِ بِحِلْمٍ فَإِنْ اغْتَابَا عَلَيْكُمْ فَبِالضَّرْمِ

فَيَرْجُوكَ تَارَاتٍ وَيَخْشَاكَ تَارَةً وَيَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بُدًّا مِنَ الْجَهْلِ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِجُهَّالٍ فَذَلِكَ مِنَ الْعَزْمِ

وَهَذِهِ مِنْ أَحْكَمِ آيَاتِ وَجَدْتُهَا فِي تَدْبِيرِ الْحِلْمِ وَالْغَضَبِ. وَهَذَا التَّدْبِيرُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِيمَا لَا يَجِدُ الْإِنْسَانُ بُدًّا مِنْ مُقَارَنَتِهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِطْرَاحِهِ وَمُتَارَكَتِهِ، إِمَّا لِخَوْفِ شَرِّهِ أَوْ لِلزُّرْمِ أَمْرِهِ، فَأَمَّا مَنْ أَمَكَّنَ إِطْرَاحَهُ وَلَمْ يَضُرَّ إِبْعَادُهُ، فَالْهُوَ أُنْ بِهِ أَوْلَى وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ أَصَوَّبٌ. فَإِذَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْتُ اسْتِفَادَ بِتَحْرِيكِ الْغَضَبِ فَضَائِلَهُ وَأَمِنْ بِكَفِّ نَفْسِهِ عَنِ الْانْقِيَادِ لَهُ رَدَائِلُهُ، وَصَارَ الْحِلْمُ مُدْبِّرًا لِلْأُمُورِ الْمُغْضِبَةِ بِقَدْرِ لَا يَغْتَرِيهِ نَقْصُ بَعْدَمِ الْغَضَبِ، وَلَا يَلْحَقُهُ زِيَادَةُ بَفْقَدِ الْحِلْمِ. وَلَوْ عَزَبَ عَنْهُ الْحِلْمُ حَتَّى انْقَادَ لِغَضَبِهِ ضَلَّ عَنْهُ وَجْهُ الصَّوَابِ فِيهِ، وَضَعُفَ رَأْيُهُ عَنْ خَيْرَةِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ، حَتَّى يَصِيرَ بَلِيدَ الرَّأْيِ، مَعْمُورَ الرُّوِيَّةِ، مَقْطُوعَ الْحُجَّةِ، مَسْلُوبَ الْعِرَاءِ، قَلِيلَ الْحِيلَةِ، مَعَ مَا يَنَالُهُ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَجَسَدِهِ حَتَّى يَصِيرَ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِمَّا غَضِبَ لَهُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ سَطَطُهُ كَثُرَ غَلَطُهُ.

وَرُوي أَنَّ سَلْمَانَ قَالَ لِعَلِيٍّ عليه السلام: مَا الَّذِي يُبَاعِدُنِي عَنِ غَضَبِ اللَّهِ عليه السلام؟ قَالَ: لَا تَغْضَبُ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عليه السلام، إِذَا غَضِبَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مَنْ رَدَّ غَضَبَهُ هَدَى مَنْ أَغْضَبَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَا هَيَّجَ جَأَشَكَ كَغَيْظِ أَجَاشِكَ، وَقَالَ رَجُلٌ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ عِظْمِي. قَالَ: لَا تَغْضَبُ.

فَيُنْبَغِي لِذِي اللَّبِّ السَّوِيِّ وَالْحَزْمِ الْقَوِيِّ أَنْ يَتَلَقَّى قُوَّةَ الْغَضَبِ بِحِلْمِهِ فَيَصُدَّهَا، وَيُقَابِلُ دَوَاعِي شَرِّهِ بِحَزْمِهِ فَيَرُدُّهَا، لِيُحْطَى بِأَجَلِ الْخَيْرَةِ وَيَسْعَدَ بِحَمِيدِ الْعَاقِبَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: فِي إِغْضَابِكَ رَاحَةٌ أَعْضَابِكَ. وَسَبَبُ الْغَضَبِ مُهُجُومٌ مَا تَكَرَّهُهُ النَّفْسُ مِمَّنْ دُونَهَا، وَسَبَبُ الْحُزْنِ مُهُجُومٌ مَا تَكَرَّهُهُ النَّفْسُ مِمَّنْ فَوْقَهَا. وَالْغَضَبُ يَتَحَرَّكُ مِنْ دَاخِلِ الْجَسَدِ إِلَى خَارِجِهِ، وَالْحُزْنُ يَتَحَرَّكُ مِنْ خَارِجِ الْجَسَدِ إِلَى دَاخِلِهِ. فَلِذَلِكَ قَتَلَ الْحُزْنُ وَلَمْ يَقْتُلِ الْغَضَبُ لِبُرُوزِ الْغَضَبِ وَكُمُومِ الْحُزْنِ.

وَصَارَ الْحَادِثُ عَنِ الْغَضَبِ السَّطْوَةَ وَالْإِنْتِقَامَ لِبُرُوزِهِ، وَالْحَادِثُ عَنِ الْحُزْنِ الْمَرَضَ وَالْأَسْقَامَ لِكُمُومِهِ. وَلِذَلِكَ أَضَى الْحُزْنُ إِلَى الْمَوْتِ وَلَمْ يُفِضْ إِلَيْهِ الْغَضَبُ. فَهَذَا فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْحُزْنِ وَالْغَضَبِ. وَاغْلَمَ أَنَّ لِتَشْكِينِ الْغَضَبِ إِذَا هَجَمَ أَسْبَابًا يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى الْحِلْمِ.

مِنْهَا: أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ عليه السلام فَيَذْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى الْخَوْفِ مِنْهُ، وَيَتَّبِعُهُ الْخَوْفُ مِنْهُ عَلَى الطَّاعَةِ لَهُ، فَيَرْجِعُ إِلَى أَدْبِهِ وَيَأْخُذُ بِنَدْبِهِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَزُولُ الْغَضَبُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. قَالَ عِكْرَمَةُ: يَغْنِي إِذَا غَضِبْتَ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وَمَعْنَى قَوْلِهِ يَنْزَغَنَّكَ أَيُّ يُغْضِبَنَّكَ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يَغْنِي أَنَّهُ سَمِيعٌ بِجَهْلِ مَنْ جَهَلَ، عَلِيمٌ بِمَا يَذْهَبُ عَنْكَ الْغَضَبُ.

وَذَكَرَ أَنَّ فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبًا يَا ابْنَ آدَمَ أَذْكُرْنِي حِينَ تَغْضَبُ أَذْكُرْكَ حِينَ أَغْضَبُ، فَلَا أُنْحَقُّكَ فِيمَنْ أُنْحَقُّ. وَحِكْمِي أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الْفُرْسِ كَتَبَ كِتَابًا وَدَفَعَهُ إِلَى وَزِيرٍ لَهُ وَقَالَ: إِذَا غَضِبْتُ فَنَاولْنِيهِ. وَكَانَ فِيهِ: مَا لَكَ وَالْغَضَبُ إِنَّمَا أَنْتَ بَشَرٌ، ازْحَمْ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَزْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ ذَكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ لَمْ يَسْتَعْمِلْ قُدْرَتَهُ فِي ظُلْمِ عِبَادِ اللَّهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ مُحَارِبٍ لِهَارُونَ الرَّشِيدِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَذَلُّ مِنِّي بَيْنَ يَدَيْكَ، وَبِالَّذِي هُوَ أَقْدَرُ عَلَيَّ عِقَابِكَ مِنْكَ عَلَيَّ عِقَابِي لِمَا عَفَوْتَ عَنِّي. فَعَمَّا عَنْهُ لِمَا ذَكَرَهُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقَسْوَةَ فَقَالَ: «اطَّلَع فِي الْقُبُورِ وَاعْتَبِرَ بِالشُّوْرِ» (١). وَكَانَ بَعْضُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ إِذَا غَضِبَ أُلْقِيَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ تُرُبِ الْمُلُوكِ فَيَزُولُ غَضَبُهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ ﷺ: مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالتَّيسِيرِ. وَمِنْهَا: أَنْ يَنْتَقِلَ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا إِلَى حَالَةٍ غَيْرِهَا، فَيَزُولُ عَنْهُ الْغَضَبُ بِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَالتَّنْقِيلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَكَانَ هَذَا مَذْهَبَ الْمَأْمُونِ إِذَا غَضِبَ أَوْ شَتِمَ. وَكَانَتْ الْفُرْسُ تَقُولُ: إِذَا غَضِبَ الْقَائِمُ فَلْيَجْلِسْ وَإِذَا غَضِبَ الْجَالِسُ فَلْيَقُمْ. وَمِنْهَا: أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا يُتَوَلَّى إِلَيْهِ الْغَضَبُ مِنَ النَّدَمِ وَمَذْمَةِ الْإِنْتِقَامِ. وَكَتَبَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ إِلَى ابْنِهِ شَيْبَةَ: إِنَّ كَلِمَةَ مِنْكَ تَسْفِكُ دَمًا وَأُخْرَى مِنْكَ تَحْقِنُ دَمًا، وَإِنَّ نَفَادَ أَمْرِكَ مَعَ كَلَامِكَ، فَاحْتَرِسْ، فِي غَضَبِكَ، مِنْ قَوْلِكَ أَنْ تُخْطِئَ، وَمِنْ لَوْثِكَ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَمِنْ جَسَدِكَ أَنْ يَخْفَ، فَإِنَّ الْمُلُوكَ تُعَاقِبُ قُدْرَةً، وَتَغْفُو حِلْمًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْغَضَبُ عَلَى مَنْ لَا تَمَلِكُ عَجْزٌ، وَعَلَى مَنْ تَمَلِكُ لُؤْمٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: إِيَّاكَ وَعِزَّةَ الْغَضَبِ فَإِنَّهَا تُفْضِي إِلَى ذُلِّ الْعُذْرِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَإِذَا مَا اغْتَرَّتْكَ فِي الْغَضَبِ الْعِزَّةُ فَادْكُرْ تَذَلُّلَ الْاِغْتِيَارِ

وَمِنْهَا: أَنْ يَذْكَرَ ثَوَابَ الْعَفْوِ، وَجَزَاءَ الصَّفْحِ، فَيَقْهَرُ نَفْسَهُ عَلَى الْغَضَبِ رَغْبَةً فِي الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ، وَحَذَرًا مِنْ اسْتِحْقَاقِ الدَّمِ وَالْعِقَابِ. رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ فَلْيَقُمْ. فَيَقُومُ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ. ثُمَّ تَلَا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]» (٢).

وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فِي أَسَارَى ابْنِ الْأَسْعَدِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ مِنَ الظَّفَرِ فَأَعْطِ اللَّهَ مَا يُحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْخَيْرُ ثَلَاثٌ خِصَالٌ فَمَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنْ حَقٍّ، وَإِذَا قَدَّرَ عَفَا» (٣).

وَأَسْمَعُ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَلَّمَ مَا فَقَالَ عُمَرُ: أَرَدْتُ أَنْ يَسْتَفْزِنِي الشَّيْطَانُ لِعِزَّةِ السُّلْطَانِ فَاتَّالَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَا تَنَالَهُ مِنِّي غَدًا انصَرِفْ رَحِمَكَ اللَّهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَذْكَرَ انْعِطَافَ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ، وَمِثْلَ النَّفُوسِ إِلَيْهِ، فَلَا يَرَى إِضَاعَةَ ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَزْغَبُ فِي التَّأَلُّفِ وَجَمِيلِ النَّبَاءِ.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٩٢٩٢، وذكره الألباني في الضعيفة برقم ٢٧٩٩.

(٢) ضعفه الشيخ الألباني انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٢٧٧ - ٢٥٨٣.

(٣) قال الألباني موضوع انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ٥٤١.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَزْدَادَ أَحَدٌ يَعْفُو إِلَّا عِرًّا، فَاعْفُوا يُعِزُّكُمْ اللَّهُ»^(١). وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْكِرَامِ سُرْعَةُ الْإِنْتِقَامِ، وَلَا مِنْ شُرُوطِ الْكِرَمِ إِزَالَةُ النَّعَمِ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ: إِنِّي شَاوَزْتُ فِي أَمْرِكَ فَأَشَارُوا عَلَيَّ بِقَتْلِكَ إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ قَدْرَكَ فَوْقَ ذَنْبِكَ فَكَرِهْتُ الْقَتْلَ لِإِلَازِمِ حُرْمَتِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْمُسِيرَ أَشَارَ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ فِي السِّيَاسَةِ، إِلَّا أَنَّكَ أَتَيْتَ أَنْ تَطْلُبَ النَّصْرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ عَوَدْتَهُ مِنَ الْعَفْوِ فَإِنْ عَاقَبْتَ فَلَكَ نَظِيرٌ، وَإِنْ عَفَوْتَ فَلَا نَظِيرَ لَكَ. وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

الْبُرِّيُّ مِنِّي وَمَا الْعُذْرَ عِنْدَكَ لِي فِيمَا فَعَلْتُ فَلَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَلْمِ
 وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدِلَ غَيْرِ مُتَمِّمِ
 لَيْسَ جَحْدُكَ مَعْرُوفًا مَنَّتَ بِهِ إِنِّي لَفِي اللَّؤْمِ أَخْطَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ
 تَعْفُو بِعَدْلِ وَتَسْطُو إِنْ سَطَوْتَ بِهِ فَلَا عَدِمْنَاكَ مِنْ عَافٍ وَمُنْتَقِمِ

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ فَإِنَّ الْكُذِبَ رِيْبَةٌ وَالصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ»^(٢). وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رَجِمَ اللَّهُ امْرَأً أَضْلَحَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَقْصَرَ مِنْ عَنَانِهِ وَأَلْتَزَمَ طَرِيقَ الْحَقِّ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٨ بنحوه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٨، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وصححه الألباني «صحيح الجامع» ٣٣٧٨.

مِقُولُهُ، وَلَمْ يَعُوذْ وَالْحَطَلُ مَفْصَلُهُ^(١). وَرُوِيَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيْمٍ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: أَيْكُونُ بَخِيلًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: أَيْكُونُ كَذَابًا؟ قَالَ: لَا»^(٢). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْأَبْطَالِ﴾ [البقرة: ٤٢] «أَيُّ لَا تَخْلَطُوا الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ. وَقِيلَ فِي مَثَوْرِ الْحِكْمِ: الْكَذَابُ لِيصُّ؛ لِأَنَّ اللَّصَّ يَسْرِقُ مَالَكَ، وَالْكَذَابُ يَسْرِقُ عَقْلَكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْحَرَسُ خَيْرٌ مِنَ الْكَذِبِ وَصِدْقُ اللَّسَانِ أَوْلُ السَّعَادَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: الصَّادِقُ مُصَانٌ خَلِيلٌ، وَالْكَاذِبُ مُهَانَ ذَلِيلٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: لَا سَبْفَ كَالْحَقِّ، وَلَا عِزَّ كَالصِّدْقِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهِ بِأَذْهَبِ لِلْمُرُوءَةِ وَالْجَمَالِ

مِنَ الْكَذِبِ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ وَأَبْعَدِ بِالْبَهَاءِ مِنَ الرَّجَالِ

وَالْكَذِبُ جَمَاعٌ كُلُّ شَرٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ ذَمٍّ لِسُوءِ عَوَاقِبِهِ، وَخُبْتُ نَتَائِجِهِ؛ لِأَنَّهُ يُنتِجُ النَّيْمَةَ، وَالنَّيْمَةُ تُنتِجُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تُوَوَّلُ إِلَى الْعِدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْعِدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ. وَالصِّدْقُ وَالْكَذِبُ يَدْخُلَانِ الْأَخْبَارَ الْمَاضِيَةَ، كَمَا أَنَّ الْوَفَاءَ وَالْخُلْفَ يَدْخُلَانِ الْمَوَاعِيدَ الْمُسْتَقْبَلَةَ. فَالصِّدْقُ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالْكَذِبُ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا دَوَاعٍ.

فَدَوَاعِي الصِّدْقِ لَازِمَةٌ، وَدَوَاعِي الْكَذِبِ عَارِضَةٌ؛ لِأَنَّ الصِّدْقَ يَدْعُو إِلَيْهِ عَقْلٌ مُوجِبٌ وَشَرْعٌ مُؤَكَّدٌ، فَالْكَذِبُ يَمْنَعُ مِنْهُ الْعَقْلُ وَيَصُدُّ عَنْهُ الشَّرْعُ.

وَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ تَسْتَفِيضَ الْأَخْبَارَ الصَّادِقَةَ حَتَّى تَصِيرَ مُتَوَاتِرَةً، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَسْتَفِيضَ الْأَخْبَارَ الْكَاذِبَةَ؛ لِأَنَّ اتِّفَاقَ النَّاسِ فِي الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ إِنَّمَا هُوَ لِاتِّفَاقِ الدَّوَاعِي، فَدَوَاعِي الصِّدْقِ يَجُوزُ أَنْ يَتَّفَقَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ عَلَيْهَا، حَتَّى إِذَا تَلَفَّوْا خَبَرًا، وَكَانُوا عَدَدًا يَنْتَفِي عَنْ مِثْلِهِمُ الْمَوَاطِئُ، وَقَعَ فِي النَّفْسِ صِدْقُهُ؛ لِأَنَّ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ نَافِعَةٌ، وَاتِّفَاقُ النَّاسِ فِي الدَّوَاعِي النَّافِعَةِ مُمَكِّنٌ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَّفَقَ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ، الَّذِي لَا يُمَكِّنُ مَوَاطِئَهُ مِثْلِهِمُ، عَلَى نَقْلِ خَبَرٍ يَكُونُ كَذِبًا؛ لِأَنَّ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ غَيْرُ نَافِعَةٍ، وَرُبَّمَا كَانَتْ ضَارَّةً.

وَلَيْسَ فِي جَارِي الْعَادَةِ أَنْ يَتَّفَقَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ عَلَى دَوَاعٍ غَيْرِ نَافِعَةٍ. وَلِذَلِكَ جَازَ اتِّفَاقَ النَّاسِ

(١) قال الألباني موضوع انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢٤١٤.

(٢) ضعيف انظر ضعيف الترغيب والترهيب ١٧٥٢.

عَلَى الصِّدْقِ؛ لِجَوَازِ اتِّفَاقِ دَوَاعِيهِمْ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَتَّفِقُوا عَلَى الكَذِبِ لِامْتِنَاعِ اتِّفَاقِ دَوَاعِيهِمْ. وَإِذَا كَانَ لِلصِّدْقِ وَالكَذِبِ دَوَاعٍ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا سَنَحَ بِهِ الخَاطِرُ مِنْ دَوَاعِيهِمَا.

أَمَّا دَوَاعِي الصِّدْقِ فَمِنْهَا: العَقْلُ؛ لِأَنَّهُ مُوجِبٌ لِقَبْحِ الكَذِبِ، لِأَسِيمَا إِذَا لَمْ يَجْلِبْ نَفْعًا وَلَمْ يَدْفَعْ ضَرَرًا. وَالعَقْلُ يَدْعُو إِلَى فِعْلِ مَا كَانَ مُسْتَحْسَنًا، وَيَمْنَعُ مِنْ إِيَابِ مَا كَانَ مُسْتَقْبَحًا. وَلَيْسَ مَا أُسْتُحْسِنَ مِنْ مُبَالَغَاتِ الشُّعْرَاءِ، حَتَّى صَارَ كَذِبًا صُرَاحًا، اسْتِحْسَانًا لِلْكَذِبِ فِي العَقْلِ كَالَّذِي أَنشَدِيهِ الأَزْدِيُّ لِتَبْغِضِ الشُّعْرَاءِ:

تَوَهَّمَهُ فِكْرِي فَأَصْبَحَ خَدُّهُ وَفِيهِ مَكَانُ الوَهْمِ مِنْ فِكْرَتِي أَنْزُرُ
وَصَافِحَهُ كَفِّي فَالَمَ كَفُّهُ فَمِنْ لَمْسِ كَفِّي فِي أَنَامِلِهِ عَفْرُ
وَمَرَّ بِقَلْبِي خَاطِرًا فَجَرَحْتُهُ وَلَمْ أَرِ شَيْئًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الفِكْرُ

وَكَقُولِ العَبَّاسِ بْنِ الأَخْنَفِ وَإِنْ كَانَ دُونَ هَذِهِ المُبَالَغَةِ:

تَقُولُ وَقَدْ كَتَبْتُ دَقِيقَ حَظِّي إِلَيْهَا: لِمَ تَجَنَّبَتِ الجَلِيلَا
فَقُلْتُ لَهَا: نَحِلْتُ فَصَارَ حَظِّي مُسَاعِدَةً لِكَاتِبِهِ نَجِيلَا

لِأَنَّهُ خَرَجَ مُخْرَجَ المُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ وَالإِفْتِدَارِ عَلَى صَنَعَةِ الشُّعْرِ، وَأَنَّ شَوَاهِدَ الحَالِ تُخْرِجُهُ عَنْ تَلْيِيسِ الكَذِبِ، وَكَذَلِكَ مَا أُسْتُحْسِنَ فِي الصَّنْعَةِ وَلَمْ يُسْتَقْبَحْ فِي العَقْلِ وَإِنْ كَانَ الكَذِبُ مُسْتَقْبَحًا فِيهِ. وَمِنْهَا: الدِّينُ الوَارِدُ بِاتِّبَاعِ الصِّدْقِ وَحَظَرِ الكَذِبِ؛ لِأَنَّ الشُّعْرَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَرِدَ بِأَخْصَاصِ مَا حَظَرَهُ العَقْلُ، بَلْ قَدْ جَاءَ الشُّعْرُ زَائِدًا عَلَى مَا اقْتَضَاهُ العَقْلُ مِنْ حَظَرِ الكَذِبِ؛ لِأَنَّ الشُّعْرَ وَرَدَ بِحَظَرِ الكَذِبِ وَإِنْ جَرَّ نَفْعًا أَوْ دَفَعَ ضَرَرًا. وَالعَقْلُ إِنَّمَا حَظَرَ مَا لَا يَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا يَدْفَعُ ضَرَرًا.

وَمِنْهَا: المُرُوَّةُ فَإِنَّهَا مَانِعَةٌ مِنَ الكَذِبِ بِاعْتِنَائِهِ عَلَى الصِّدْقِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَمَنَعُ مِنْ فِعْلِ مَا كَانَ مُسْتَكْرَهًا، فَأَوَّلَى مَنْ فَعَلَ مَا كَانَ مُسْتَقْبَحًا. وَمِنْهَا: حُبُّ التَّنَاءِ وَالإِسْتِهَارِ بِالصِّدْقِ حَتَّى لَا يُرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلٌ وَلَا يُلْحَقُهُ نَدَمٌ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ: لِيَكُنْ مَرَجِعُكَ إِلَى الحَقِّ وَمَنْزَعُكَ إِلَى الصِّدْقِ، فَالْحَقُّ أَقْوَى مَعِينٍ، وَالصِّدْقُ أَفْضَلُ قَرِينٍ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

عَوْدَ لِسَانِكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تُحَظُّ بِهِ إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدَتْ مُعْتَادُ
مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ فَانظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ

وَأَمَّا دَوَاعِي الكَذِبِ فَمِنْهَا: اجْتِلَابُ النِّفْعِ وَاسْتِدْفَاعُ الضَّرِّ، فَيَرَى أَنَّ الكَذِبَ أَسْلَمَ وَأَعْنَمَ

فَيَرْتَحِصُ لِنَفْسِهِ فِيهِ اغْتِرَازًا بِالْخُدْعِ، وَاسْتِشْفَافًا لِلطَّمَعِ. وَرَبِّمَا كَانَ الْكَذِبُ أَبْعَدَ لِمَا يُؤْمَلُ وَأَقْرَبَ لِمَا يَخَافُ؛ لِأَنَّ الْقَبِيحَ لَا يَكُونُ حَسَنًا وَالشَّرَّ لَا يَصِيرُ خَيْرًا. وَلَيْسَ يُجْنَى مِنَ الشُّوكِ الْعَيْبُ وَلَا مِنَ الْكُزْمِ الْحَنْظَلُ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَحَرَّوْا الصَّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ، وَتَجَنَّبُوا الْكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ النَّجَاةَ فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ»^(١). وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ: لِأَنَّ يَتَّعِنِي الصَّدْقُ وَقَلَّمَا يَفْعَلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَزْفَعَنِي الْكَذِبُ وَقَلَّمَا يَفْعَلُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الصَّدْقُ مُنْجِيكَ وَإِنْ خِفْتَهُ، وَالْكَذِبُ مُرْدِيكَ وَإِنْ أَمِنتَهُ.

وَقَالَ الْجَاحِظُ: الصَّدْقُ وَالْوَفَاءُ تَوْأَمَانِ، وَالصَّبْرُ وَالْحِلْمُ تَوْأَمَانِ فِيهِنَّ تَمَامُ كُلِّ دِينٍ، وَصَلَاحُ كُلِّ دُنْيَا، وَأَضْدَادُهُنَّ سَبَبُ كُلِّ فُرْقَةٍ وَأَصْلُ كُلِّ فَسَادٍ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُؤَثَّرَ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُهُ مُسْتَعْدَبًا وَكَلَامُهُ مُسْتَظَرَفًا، فَلَا يَجِدُ صِدْقًا يُعْدَبُ وَلَا حَدِيثًا يُسْتَظَرَفُ، فَيَسْتَحْلِي الْكَذِبَ الَّذِي لَيْسَتْ غَرَابِيئُهُ مَعْرُوزَةً، وَلَا ظَرَائِفُهُ مُعْجِزَةً. وَهَذَا النَّوعُ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّا قَبْلُ؛ لِأَنَّهُ يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةِ النَّفْسِ وَدَنَاءَةِ الْهَيْمَةِ.

وَقَدْ قَالَ الْجَاحِظُ: لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا لِيَصْغِرَ قَدْرُ نَفْسِهِ عِنْدَهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: لَا تَتَهَاوَنَ بِإِرْسَالِ الْكِذْبَةِ مِنَ الْهَزْلِ فَإِنَّهَا تُسْرِعُ إِلَى إِبْطَالِ الْحَقِّ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَقْصِدَ بِالْكَذِبِ التَّشْفِيَّ مِنَ عَدُوِّهِ فَيَسْمَهُ بِقَبَائِحَ يَخْتَرِعُهَا عَلَيْهِ، وَيَصِفُهُ بِفَضَائِحَ يُشَبِّهُهَا إِلَيْهِ. وَيَرَى أَنْ مَعْرَةَ الْكَذِبِ عُنْمٌ وَأَنْ إِزْسَالَهَا فِي الْعَدُوِّ سَهْمٌ وَسُمٌّْ. وَهَذَا أَسْوَأُ حَالًا مِنَ التَّوَعُّبِ الْأَوَّلِينَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْكَذِبِ الْمُعَرِّ وَالشَّرِّ الْمُضِرِّ. وَلِذَلِكَ وَرَدَ الشَّرْعُ بَرْدَ شَهَادَةِ الْعَدُوِّ عَلَى عَدُوِّهِ. وَمِنْهَا: أَنْ تَكُونَ دَوَاعِي الْكَذِبِ قَدْ تَرَادَفَتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَلْفَهَا، فَصَارَ الْكَذِبُ لَهُ عَادَةً، وَنَفْسُهُ إِلَيْهِ مُنْقَادَةً، حَتَّى لَوْ رَامَ مُجَابَبَةَ الْكَذِبِ عَسِرَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ طَبِيعٌ ثَانٍ.

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: مَنْ اسْتَحْلَى رِضَاعَ الْكَذِبِ عَسِرَ فِطَامُهُ. وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: لَا يَلْزَمُ الْكُذَّابُ شَيْءٌ إِلَّا غَلَبَ عَلَيْهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْكَذَّابِ قَبْلَ خَبْرَتِهِ أَمَارَاتٍ دَالَّةً عَلَيْهِ.

فَمِنْهَا: أَنَّكَ إِذَا لَقَيْتَهُ الْحَدِيثَ تَلَقَّيْتَهُ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ مَا لَقَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أوردَهُ فَرْقٌ عِنْدَهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّكَ إِذَا شَكَّكَتَهُ فِيهِ تَشَكَّكَتَ حَتَّى يَكَادَ يَزْجَعُ فِيهِ، وَلَوْ لَأَكَّ مَا تَخَالَجَهُ الشُّكُّ فِيهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّكَ إِذَا رَدَدْتَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ حُصِرَ وَارْتَبَكَ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ نُصْرَةٌ الْمُحْتَجِّينَ، وَلَا بُرْهَانٌ

الصَّادِقِينَ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ -: الْكُذَّابُ كَالسَّرَابِ.

(١) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة رقم ٣٣٩١.

وَمِنْهَا: مَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ مِنْ رِيْبَةِ الْكُذَّابِيْنَ وَيُنْمُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلَّةِ الْمُتَوَهِّمِيْنَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أُمُورٌ لَا يُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ دَفْعَهَا عَنْ نَفْسِهِ؛ لِمَا فِي الطَّبَعِ مِنْ آثَارِهَا. وَلِذَلِكَ قَالَتْ الْحُكَمَاءُ: الْعَيْنَانِ أَنْتُمْ مِنَ اللِّسَانِ. وَقَالَ بَعْضُ الثُّلَمَاءِ: الْوُجُوهُ مَرَايَا تُرِيكَ أَسْرَارَ الْبَرَايَا. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

تُرِيكَ أَغْيُنُهُمْ مَا فِي صُدُورِهِمْ إِنَّ الْعُيُونَ يُودِي سِرَّهَا النَّظْرُ

وَإِذَا اتَّسَمَ بِالْكَذِبِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ سُورِدُ الْكُذِبِ الْمَجْهُولَةُ، وَأُضِيفَتْ إِلَى أَكَاذِيهِ زِيَادَاتٌ مُفْتَعَلَةٌ حَتَّى يَصِيرَ الْكَاذِبُ مَكْذُوبًا عَلَيْهِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ مَعْرَةِ الْكُذِبِ مِنْهُ وَمَضَرَّةِ الْكُذِبِ عَلَيْهِ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

حَسْبُ الْكَذُوبِ مِنَ الْبَيِّنَةِ بَعْضُ مَا يُخَكِّي عَلَيْهِ

فَإِذَا سَمِعْتَ بِكَذِبِهِ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ تَحَرَّى الصِّدْقَ أَثَمَهُ، وَإِنْ جَانَبَ الْكُذِبَ كُذِبَ، حَتَّى لَا يُعْتَقَدَ لَهُ حَدِيثٌ يُصَدَّقُ، وَلَا كُذِبٌ مُسْتَنَكَّرٌ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا عُرِفَ الْكَذَّابُ بِالْكَذِبِ لَمْ يَكْذُ يُصَدَّقُ فِي شَيْءٍ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا

وَمِنْ آفَةِ الْكَذَّابِ نَسْيَانُ كِذْبِهِ وَتَلْقَاؤُهُ إِذَا كَانَ حَادِقًا

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِإِزْخَاصِ الْكُذِبِ فِي الْحَزْبِ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيِّنِ عَلَى وَجْهِ التَّوْرِيَةِ، وَالتَّأْوِيلِ دُونَ التَّضْرِيحِ بِهِ.

فَإِنَّ السُّنَّةَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَرَدَّ بِإِبَاحَةِ الْكُذِبِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْفِيرِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ التَّوْرِيَةِ وَالتَّعْرِيضِ، كَمَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ تَطَرَّفَ بِرِدَائِهِ وَأَنْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «مِنْ مَاءٍ»، فَوَرَى عَنِ الْإِخْتِبَارِ بِنَسْبِهِ بِأَمْرٍ يَحْتَمِلُ. فَظَنَّ السَّائِلُ أَنَّهُ عَنِ الْقَبِيلَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يُخْلَقُ مِنْهُ الْإِنْسَانُ، فَتَلَعَّ مَا أَحَبَّ مِنْ إِخْفَاءِ نَفْسِهِ وَصَدَقَ فِي خَبْرِهِ. وَكَالَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؓ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ هَاجَرَ مَعَهُ فَتَلَقَاهُ الْعَرَبُ وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَبَا بَكْرٍ وَلَا يَعْرِفُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: هَادٍ يَهْدِينِي السَّبِيلَ^(١) فَيُظَنُّونَ أَنَّهُ يَعْنِي هِدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ هِدَايَةَ سَبِيلِ الْخَيْرِ، فَيُصَدَّقُ فِي قَوْلِهِ وَيُورَى عَنْ مُرَادِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكُذِبِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في المناقب رقم ٣٩١١. (٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم ١٠٩٤.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ مَا يَكْفِي أَنْ يَعِفَّ الرَّجُلُ عَنِ الْكَذِبِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]. أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَلَكِنَّهُ مَعَارِيضُ الْكَلَامِ. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: الْكَلَامُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُصْرَحَ فِيهِ بِالْكَذِبِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنَ الصُّدْقِ مَا يَقُومُ مَقَامَ الْكَذِبِ فِي الْقَبِيحِ وَالْمَعْرَّةِ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ فِي الْأَذَى وَالْمَضْرَّةِ، وَهِيَ الْغَيْبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَالسَّعَايَةُ. فَأَمَّا الْغَيْبَةُ فَإِنَّهَا خِيَانَةٌ وَهَتْكَ سِتْرُ يَحْدُثَانِ عَنْ حَسَدٍ وَعَدْرِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحُبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢]. عَنِي أَنَّهُ كَمَا لَا يَحِلُّ لَحْمُهُ مَيْتًا لَا يَحِلُّ غَيْبَتُهُ حَيًّا.

وَرُوي أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَجَعَلْنَا تَعْتَابَانِ النَّاسَ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ لَهُمَا، وَأَفْطَرْنَا عَلَى مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمَا»^(١).

وَرَوَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ زَيْدٍ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ذَبَّ عَنِ لَحْمِ أَخِيهِ بَطَّحَ الْعَيْبُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُحَرِّمَ لَحْمَهُ عَلَى النَّارِ»^(٢). وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: الْغَيْبَةُ رَغِي اللَّتَامِ. وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - يَقُولُ: الْغَيْبَةُ فَكَيْهَةُ النِّسَاءِ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِابْنِ سِيرِينَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: إِنِّي اغْتَبْتُكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلٍّ. فَقَالَ مَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَحِلَّ لَكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ. وَقَالَ ابْنُ السَّمَاكِ: لَا تُعِنِ النَّاسَ عَلَى عَيْنِكَ بِسُوءِ غَيْبِكَ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكُ اللَّهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَ
وَأَذْكَرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ

وَرُبَّمَا عَدَرَ الْمُغْتَابُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَقُولُ حَقًّا وَيُغْلِبُ فِشْقًا. وَيَسْتَشْهَدُ بِمَا رُويَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَيْسَتْ غَيْبَتُهُمْ بِغَيْبَةِ الْإِمَامِ الْجَائِزِ وَشَارِبِ الْخَمْرِ وَالْمُغْلِبِ بِفِشْقِهِ»^(٣). فَيَتَعَدُّ مِنَ الصَّوَابِ وَبِجَانِبِ الْأَدَبِ؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ بِالْغَيْبَةِ صَادِقًا فَقَدْ هَتَكَ سِتْرًا كَانَ بِصُونِهِ أَوْلَى وَجَاهَرَهُ مِنْ أَسْرٍ وَأَخْفَى. وَرُبَّمَا دَعَا الْمُغْتَابُ ذَلِكَ إِلَى إِظْهَارِ مَا كَانَ يَسْتُرُهُ، وَالْمُجَاهِرَةُ بِمَا كَانَ يُضْمِرُهُ، فَلَمْ يَفِدْ ذَلِكَ إِلَّا فَسَادَ أَخْلَاقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ صَلَاحٌ لِغَيْرِهِ.

وَقَدْ قِيلَ لِأَنُوشِروَانَ: مَا الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ؟ قَالَ: مَا ضَرَّرَنِي وَلَمْ يَنْفَعْ غَيْرِي، أَوْ ضَرَّ غَيْرِي وَلَمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٣١/٥ والسلسلة الضعيفة ٥١٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٦١/٦.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الغيبة والنميمة» ١٠١ وانظر ضعيف الجامع ٢٥٩٠.

يَنْفَعْنِي، فَلَا أَعْلَمُ فِيهِ خَيْرًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحَكَمِ: لَا تُبَدِّدِ مِنَ الْعُيُوبِ مَا سَتَرَهُ عَلَامُ الْعُيُوبِ. وَقَدْ رَوَى الْعَلَاءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْغَيْبَةِ فَقَالَ: «هِيَ أَنْ تَقُولَ لِأَخِيكَ مَا فِيهِ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] إِنَّهُ اسْتِهْزَأَ الْمُسْلِمَ بِمَنْ أَعْلَنَ بِفِسْقِهِ. وَدَخَلَتْ امْرَأَةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَفْتِيَةً فَلَمَّا خَرَجَتْ قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَفْصَرَهَا. فَقَالَ: «مَهْلًا إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ». فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قُلْتُ مَا فِيهَا. قَالَ: «أَجَلٌ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَكَانَ بُهْتَانًا»^(٢). وَسُئِلَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ عَنْ صِفَةِ اللَّيْمِ، فَقَالَ: اللَّيْمُ إِذَا غَابَ غَابَ، وَإِذَا حَضَرَ اغْتَابَ. فَأَمَّا الْحَبِيرُ: فَمَحْمُولٌ عَلَى الْإِنْكَارِ لِأَفْعَالٍ هُؤُلَاءِ وَلَا يَكُونُ الْإِنْكَارُ غَيْبَةً؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنِ مُنْكَرٍ، وَفَرَّقَ بَيْنَ إِنْكَارِ الْمُجَاهِرِ وَغَيْبَةِ الْمُسَاتِرِ. وَأَمَّا النَّيْمَةُ: فَهِيَ أَنْ تَجْمَعَ إِلَى مَدْمَةِ الْغَيْبَةِ رَدَاءَةً وَشَرًّا، وَتَضُمُّ إِلَى لُؤْمِهَا دَنَاءَةً وَعَدْرًا. ثُمَّ تُؤْوَلُ إِلَى تَقَاطِعِ الْمُتَوَاصِلِينَ، وَتَبَاغُضِ الْمُتَحَابِّينَ.

وَرَوَى شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: مِنْ شِرَارِكُمْ الْمَسَاءُونَ وَالنَّيْمَةُ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ الْعُيُوبِ»^(٣). وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَلْعُونٌ ذُو الْوَجْهَيْنِ، مَلْعُونٌ ذُو اللَّسَانَيْنِ مَلْعُونٌ كُلُّ شَقَّارٍ، مَلْعُونٌ كُلُّ قَتَاتٍ مَلْعُونٌ كُلُّ مَنَانٍ»^(٤). الشَّقَّارُ: الْمُحَرَّشُ بَيْنَ النَّاسِ يُلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ، وَالْقَتَاتُ النَّمَامُ وَقِيلَ النَّمَامُ الَّذِي يَكُونُ مَعَ الْقَوْمِ يَتَحَدَّثُونَ فَيَنْتَمِ حَدِيثُهُمْ، وَالْقَتَاتُ: هُوَ الَّذِي يَسْتَمِعُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فَيَنْتَمِ حَدِيثُهُمْ، وَالْمَنَانُ: هُوَ الَّذِي يَصْنَعُ الْخَيْرَ وَيَمُنُّ بِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحَكَمِ: النَّيْمَةُ سَيْفٌ قَاتِلٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: لَمْ يَمْسُ مَا شَرُّ مِنْ وَاشٍ. فَأَمَّا السَّعَايَةُ فَهِيَ شُرُّ الثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ إِلَى مَدْمَةِ الْغَيْبَةِ وَلُؤْمِ النَّيْمَةِ، التَّغْيِيرُ بِالنَّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْقَدَحُ فِي الْمَنَازِلِ وَالْأَحْوَالِ. وَرَوَى ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا ذَيْبُوثٌ وَلَا قَلَاعٌ»^(٥). الذَّيْبُوثُ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَدْتُ بَيْنَهُمْ. وَالْقَلَاعُ هُوَ السَّاعِي الَّذِي يَقَعُ فِي النَّاسِ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٩.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ٦٧٦٧ وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/٤٥٩، وقواه بشواهد الشيخ الألباني كما في «الصحيفة» ٢٨٤٩.

(٤) عزاه في «كشف الخفا» ٢٣٣٧، للديلمي في مسند الفردوس.

(٥) انظر جمع الجوامع للسيوطي ٦١١/٢ ولم يعزه.

عِنْدَ الْأَمْرَاءِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَأْتِي الرَّجُلَ الْمُتَمَكِّنَ عِنْدَ الْأَمِيرِ فَلَا يَزَالُ يَقَعُ فِيهِ حَتَّى يَقْلَعَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: السَّاعِي بَيْنَ مَنزِلَتَيْنِ قَبِيحَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَدَقَ فَقَدْ خَانَ الْأَمَانَةَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ كَذَبَ فَخَالَفَ الْمُرُوءَةَ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الصَّدَقُ يُزِينُ كُلَّ أَحَدٍ إِلَّا السُّعَاةَ، فَإِنَّ السَّاعِيَ أَدْمُ وَأَنْتُمْ مَا يَكُونُ إِذَا صَدَقَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: النَّيْمَةُ دَنَاءَةٌ وَالسَّعَايَةُ رَدَاءَةٌ، وَهُمَا رَأْسُ الْعَدْرِ وَأَسَاسُ الشَّرِّ فَتَجَنَّبْ سُبُلَهُمَا، وَاجْتَنِبْ أَهْلَهُمَا ^(١). وَوَقَعَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَلَى قِصَّةِ سَاعٍ سَعَى إِلَيْهِ: تَحُنُّ نَرَى قَبُولَ السَّعَايَةِ شَرًّا مِنْهَا؛ لِأَنَّ السَّعَايَةَ دَلَالَةٌ، وَالْقَبُولَ إِجَازَةٌ، فَاتَّقُوا السَّاعِيَ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي سِعَايَتِهِ صَادِقًا كَانَ فِي صِدْقِهِ أَنْتَمًا، إِذْ لَمْ يَحْفَظِ الْحُزْمَةَ وَيَسْتُرِ الْعَوْرَةَ. وَقَالَ الْإِسْكََنْدَرُ لِرَجُلٍ سَعَى إِلَيْهِ بِرَجُلٍ: أَتُحِبُّ أَنْ تَقْبَلَ مِنْكَ مَا تَقُولُ فِيهِ عَلَيَّ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ مَا يَقُولُ فِيكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَكُفَّ عَنِ الشَّرِّ يَكُفُّ عَنكَ الشَّرُّ. وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى - عَلَيَّ نَبِيًّا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ فِي بَلَدِكَ سَاعِيًا وَلَسْتُ أَخْبِرُكَ وَهُوَ فِي أَرْضِكَ. قَالَ يَا رَبِّ ذُنْبِي عَلَيَّ حَتَّى أَخْرِجَهُ فَقَالَ: يَا مُوسَى أَكْرَهُ النَّيْمَةَ وَأَنْتُمْ.

الْفَضْلُ السَّادِسُ فِي الْحَسَدِ وَالْمَنَافَسَةِ

اعْلَمَنَّ أَنَّ الْحَسَدَ خُلِقَ دَمِيمٌ مَعَ إِضْرَارِهِ بِالْبَدَنِ وَفَسَادِهِ لِلدِّينِ، حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، وَنَاهَيْكَ بِحَالِ ذَلِكَ شَرًّا. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ هِيَ الْحَالِقَةُ خَالِقَةُ الدِّينِ لَا خَالِقَةُ الشُّعْرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا إِلَّا أَنْبَتُكُمْ بِأَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْسُؤُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» ^(٢). فَأَخْبَرَ ﷺ بِحَالِ الْحَسَدِ وَأَنَّ التَّحَابُّ يَنْفِيهِ وَأَنَّ السَّلَامَ يَبْعَثُ عَلَى التَّحَابُّ، فَصَارَ السَّلَامُ إِذَا نَافَيْتَ لِلْحَسَدِ.

(١) راجع هذه الأخبار في الكامل للمبرد ٢/٢٧، ٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في «صفة القيامة» ٢٥١٠، وحسنه الألباني «صحيح الترمذي» رقم ٢٠٣٨.

وَقَدْ جَاءَ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يُؤَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] قَالَ مُجَاهِدٌ: مَغْنَاهُ ادْفَعِ بِالسَّلَامِ إِسَاءَةَ الْمُسِيءِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ بَلَبْتُ النَّاسَ حِينًا لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَدٌ فَيَزْرَعُهُ التَّسْلِيمُ وَاللُّطْفُ

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبِ عِصِي اللَّهِ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَغْنِي حَسَدَ إِبْلِيسَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوَّلُ ذَنْبِ عِصِي اللَّهِ بِهِ فِي الْأَرْضِ، يَغْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْخَطْهُ أَحَدٌ، وَمَنْ قَنَعَ بِعَطَائِهِ لَمْ يَدْخُلْهُ حَسَدٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: النَّاسُ حَاسِدٌ وَمَحْسُودٌ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ حُسُودٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحُسُودِ نَفْسَ دَائِمٍ، وَهَمَّ لِأَزْمٍ، وَقَلْبَ هَائِمٍ. فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ:

إِنَّ الْحُسُودَ الظُّلُومَ فِي كَرْبٍ يَخَالُهُ مَنْ يَرَاهُ مَظْلُومًا
ذَا نَفْسٍ دَائِمٍ عَلَى نَفْسٍ يُظْهِرُ مِنْهَا مَا كَانَ مَكْنُومًا

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ دَمِ الْحَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ خُلِقَ ذَنبِيٌّ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَقَارِبِ، وَيَخْتَصُّ بِالْمُخَالِطِ وَالْمُصَاحِبِ، لَكَانَتْ التَّرَاهَةُ عَنْهُ كَرَمًا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهُ مَغْنَمًا. فَكَيْفَ وَهُوَ بِالنَّفْسِ مُضِرٌّ، وَعَلَى الْهَمِّ مُضِرٌّ، حَتَّى رُبَّمَا أَفْضَى بِصَاحِبِهِ إِلَى التَّلَفِ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي عَدُوٍّ وَلَا إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ.

وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه: لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنَ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَحْسُودِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُورِكَ. وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحَكَمِ: عُقُوبَةُ الْحَاسِدِ مِنْ نَفْسِهِ. وَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ: قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ: مَا أَطْوَلُ عُمْرِكَ، قَالَ: تَرَكْتُ الْحَسَدَ قَبِيئًا. وَقَالَ رَجُلٌ لِشَرِيحِ الْقَاضِي: إِنِّي لِأَحْسُدُكَ عَلَى مَا أَرَى مِنْ صَبْرِكَ عَلَى الْخُصُومِ، وَوُفُوفِكَ عَلَى غَامِضِ الْحُكْمِ. فَقَالَ: مَا نَفَعَكَ اللَّهُ بِذَلِكَ وَلَا ضَرَّنِي. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:

اضْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسُودِ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَغْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وَحَقِيقَةُ الْحَسَدِ شِدَّةُ الْأَسَى عَلَى الْخَيْرَاتِ تَكُونُ لِلنَّاسِ الْأَفَاضِلِ وَهُوَ غَيْرُ الْمُنَافَسَةِ، وَرُبَّمَا غَلِطَ

قَوْمٌ فَظَنُوا أَنَّ الْمُنَافَسَةَ فِي الْخَيْرِ هِيَ الْحَسَدُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ظَنُّوا؛ لِأَنَّ الْمُنَافَسَةَ طَلَبُ التَّشْبِيهِ بِالْأَفْضَلِ مِنْ غَيْرِ إِذْخَالَ ضَرَرَ عَلَيْهِمْ. وَالْحَسَدُ مَضْرُوفٌ إِلَى الضَّرْرِ؛ لِأَنَّ غَايَتَهُ أَنْ يَغْدِمَ الْأَفْضَلَ فَضْلُهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَ الْفَضْلُ لَهُ، فَهَذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ. فَالْمُنَافَسَةُ إِذَا فَضِيلَةٌ؛ لِأَنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَى اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَخْيَارِ الْأَفْضَالِ. وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ يَغِيظُ وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ»^(١). وَقَالَ الشَّاعِرُ:

نَافِسٌ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَهْلُ الْعَلَا فَإِنَّمَا الدُّنْيَا أَحَادِيثُ
كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ كَادِحٌ فَوَارِثٌ مِنْهُمْ وَمَوْزُوثٌ
وَاعْلَمْ أَنَّ دَوَاعِيَ الْحَسَدِ ثَلَاثَةٌ:

* أَحَدُهَا: بُغْضُ الْمَحْسُودِ فَيَأْسَى عَلَيْهِ بِفَضِيلَةٍ تَظْهَرُ، أَوْ مَنَقِبَةٍ تُشْكِرُ، فَيُبِيرُ حَسَدًا قَدْ خَامَرَ بُغْضًا. وَهَذَا النَّوْعُ لَا يَكُونُ عَامًّا وَإِنْ كَانَ أَضْرَّهَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ يُبْغِضُ كُلُّ النَّاسِ.

* وَالثَّانِي: أَنْ يَظْهَرَ مِنَ الْمَحْسُودِ فَضْلٌ يَعْجِزُ عَنْهُ فَيَكْرَهُ تَقَدُّمَهُ فِيهِ وَاحْتِصَاصَهُ بِهِ، فَيُبِيرُ ذَلِكَ حَسَدًا لَوْلَاهُ لَكَفَّ عَنْهُ، وَهَذَا أَوْسَطُهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْسُدُ الْأَكْفَاءَ مِنْ دَنَا، وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ بِحَسَدٍ مِنْ عَلَا. وَقَدْ يَمْتَرِجُ بِهَذَا النَّوْعِ ضَرْبٌ مِنَ الْمُنَافَسَةِ وَلَكِنَّهَا مَعَ عَجْزٍ فَلِذَلِكَ صَارَتْ حَسَدًا.

* وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ فِي الْحَاسِدِ شُحٌّ بِالْفَضَائِلِ، وَتُخَلُّ بِالنِّعَمِ وَلَيْسَتْ إِلَيْهِ فَيَمْنَعُ مِنْهَا، وَلَا يَبْدِيهِ فَيَذْفَعُ عَنْهَا؛ لِأَنَّهَا مَوَاهِبٌ قَدْ مَنَحَهَا اللَّهُ مِنْ شَاءَ فَيَسْخَطُ عَلَى اللَّهِ ﷻ فِي قَضَائِهِ، وَيَحْسُدُ عَلَى مَا مَنَحَ مِنْ عَطَائِهِ، وَإِنْ كَانَتْ نِعْمُ اللَّهِ ﷻ عِنْدَهُ أَكْثَرَ، وَمِنَحُهُ عَلَيْهِ أَظْهَرَ.

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَسَدِ أَعْمَهَا وَأَخْبَثُهَا إِذْ لَيْسَ لِصَاحِبِهِ رَاحَةٌ، وَلَا لِرِضَاهُ غَايَةٌ، فَإِنْ افْتَرَنَ بِشَرٍّ وَقُدْرَةٍ كَانَ بُورًا وَانْتِقَامًا، وَإِنْ صَادَفَ عَجْزًا وَمَهَانَةً كَانَ كَمَدًا وَسَقَامًا. وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: الْحَسُودُ مِنَ النَّهْمِ كَسَاقِي السَّمِّ، فَإِنْ سَرَى سُمُّهُ زَالَ عَنْهُ غَمُّهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ بِحَسَبِ فَضْلِ الْإِنْسَانِ وَظُهُورِ النَّعْمَةِ عَلَيْهِ يَكُونُ حَسَدُ النَّاسِ لَهُ. فَإِنْ كَثُرَ فَضْلُهُ كَثُرَ حُسَادُهُ، وَإِنْ قَلَّ قَلُّوا؛ لِأَنَّ ظُهُورَ الْفَضْلِ يُبِيرُ الْحَسَدَ، وَحُدُوثَ النَّعْمَةِ يُضَاعِفُ الْكَمَدَ.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِشَرِّهَا فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»^(٢). وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: مَا كَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا وَجَدَ لَهَا حَاسِدًا، فَلَوْ كَانَ الرَّجُلُ أَقْوَمَ مِنَ الْقَدْحِ لَمَا عَدِمَ غَامِرًا. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٨/ ٩٥. (٢) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للالباني رقم ١٤٥٣.

إِنْ يَحْسُدُونِي فإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ قَبَلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَسَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا يَمَّا يَحِيدُ

وَرَبَّمَا كَانَ الْحَسَدُ مُتَّبِعًا عَلَى فَضْلِ الْمُحْسُودِ وَنَقْصِ الْحُسُودِ، كَمَا قَالَ أَبُو تَمَّامِ الطَّائِي:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوِيَتْ أَسَاحُ لَهَا لِسَانُ حُسُودِ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ
لَوْلَا الشَّخُوفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ يَزَلْ لِلْحَاسِدِ التُّعْمَى عَلَى الْمُحْسُودِ

فَأَمَّا مَا يَسْتَعْمَلُهُ مَنْ كَانَ غَالِبًا عَلَيْهِ الْحَسَدُ، وَكَانَ طَبَعُهُ إِلَيْهِ مَائِلًا لِيَتَفَيَّ عَنْهُ وَيُكْفَاهُ وَيَسْلَمَ مِنْ ضَرَرِهِ وَعَدَاوَتِهِ، فَأُمُورٌ هِيَ لَهُ حَسْمٌ إِنْ صَادَفَهَا عَزْمٌ.

فَمِنْهَا: اتِّبَاعُ الدِّينِ فِي اجْتِنَابِهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي آدَابِهِ، فَيَفْهَرُ نَفْسَهُ عَلَى مَذْمُومِ خُلُقِهَا، وَيَتَّقُلُهَا عَنْ لَيْمِ طَبَعِهَا، وَإِنْ كَانَ نَقَلُ الطَّبَاعِ عَسْرًا لَكَ بِالرِّيَاضَةِ وَالتَّدْرِيجِ يَسْهُلُ مِنْهَا مَا أُسْتَضْعَبُ، وَيُحِبُّ مِنْهَا مَا أَنْعَبَ وَإِنْ تَقَدَّمَ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَنْ رَبُّهُ خَلَقَهُ كَيْفَ يُحَلِّي خَلْقَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا عَانَى تَهْدِيبَ نَفْسِهِ تَطَاهَرَ بِالتَّحَلُّقِ دُونَ الْخُلُقِ، ثُمَّ بِالْعَادَةِ بَصِيرٌ كَالْخُلُقِ. قَالَ أَبُو تَمَّامِ الطَّائِي:

فَلَمْ أَجِدِ الْأَخْلَاقَ إِلَّا تَخَلُّقًا وَلَمْ أَجِدِ الْأَفْضَالَ إِلَّا تَفْضُلًا

وَمِنْهَا: الْعَقْلُ الَّذِي يَسْتَفِيحُ بِهِ مِنْ نَتَائِجِ الْحَسَدِ مَا لَا يُرْضِيهِ، وَيَسْتَنْكِفُ مِنْ هُجْنِهِ مُسَاوِيَهُ، فَيُذَلِّلُ نَفْسَهُ أَنْفَةً، وَيَفْهَرُهَا حَمِيَّةً، فَتُذْعَنُ لِرُشْدِهَا، وَتُجِيبُ إِلَى صِلَاحِهَا. وَهَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لِذِي النَفْسِ الْآيِيَّةِ، وَالْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذُو الْهَمَّةِ يَجِلُّ عَنْ ذِنَاءَةِ الْحَسَدِ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَبِي لَهْ نَفْسَانِ نَفْسٍ رَكِيَّةٌ وَنَفْسٌ إِذَا مَا خَافَتْ الظُّلْمَ تُشْمِسُ

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَذْفِعَ ضَرَرَهُ، وَيَتَوَقَّى أَثَرَهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ مَكَانَتَهُ فِي نَفْسِهِ أْبْلَغُ وَمِنْ الْحَسَدِ أْبَعْدُ، فَيَسْتَعْمَلُ الْحَزْمَ فِي دَفْعِ مَا كَدَّهُ وَأَكْمَدَهُ لِيَكُونَ أَطْيَبَ نَفْسًا وَأَهْنَأَ عَيْشًا، وَقَدْ قِيلَ: الْعَجَبُ لِعَقْلَةِ الْحَسَادِ عَنْ سَلَامَةِ الْأَجْسَادِ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا بَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ.

وَمِنْهَا: مَا يَرَى مِنْ نُفُورِ النَّاسِ عَنْهُ وَبُعْدِهِمْ مِنْهُ فَيَخَافُهُمْ إِمَّا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةٍ، أَوْ عَلَى عَرِضِهِ مِنْ مَلَامَةٍ، فَيَأْتِيَهُمْ بِمُعَالَجَةِ نَفْسِهِ وَيَرَاهُمْ إِنْ صَلَحُوا أَجْدَى نَفْعًا وَأَخْلَصُ وُدًّا. وَقَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ذَاوِي جَوَى بِجَوَى وَلَيْسَ بِحَازِمٍ مَنْ يَسْتَكْفُ النَّارَ بِالْحَلْفَاءِ وَقَالَ الْمُؤَمَّلُ بْنُ أَمِيَلٍ:

لَا تَحْسَبُونِي غَيْبًا عَن مَّوَدَّتِكُمْ إِنِّي إِلَيْكُمْ وَإِن أَيْسَرْتُ مُفْتَقِرٌ
 وَمِنْهَا: أَنْ يُسَاعِدَ الْقَضَاءَ وَيَسْتَسْلِمَ لِلْمَقْدُورِ، وَلَا يَرَى أَنْ يُعَالِبَ قَضَاءَ اللَّهِ فَيَرْجِعُ مَغْلُوبًا، وَلَا أَنْ
 يُعَارِضَهُ فِي أَمْرِهِ فَيَرُدُّ مَخْرُومًا مَسْلُوبًا. وَقَدْ قَالَ أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابَكٍ: إِذَا لَمْ يُسَاعِدْنَا الْقَضَاءُ سَاعَدْنَا.
 وَقَالَ مَخْمُودُ الْوَرَّاقُ:

قَدَرُ اللَّهِ كَائِنٌ حِينَ يَقْضِي وَرُودُهُ
 قَدَمَظَى فِيكَ عِلْمُهُ وَانْتَهَى مَا يُرِيدُهُ
 وَأَخُو الْحَزْمِ حَزْمُهُ لَيْسَ مِمَّا يَزِيدُهُ
 فَأَرِدُ مَا يَكُونُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَائِرِيدُهُ

فَإِنْ أَظْفَرْتَهُ السَّعَادَةَ بِأَحَدِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَهَدَيْتَهُ الْمَرَاشِدُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الصَّوَابِ، سَلِمَ مِنْ
 سَقَامِهِ، وَخَلَصَ مِنْ غَرَامِهِ، وَاسْتَبَدَلَ بِالنَّقْصِ قَضًا وَاعْتَاضَ مِنَ الدَّمِّ حَمْدًا. وَلَمَنْ اسْتَنْزَلَ نَفْسَهُ
 عَنِ مَذْمُومَةٍ فَصَرَفَهَا عَنِ لَائِمَةٍ هُوَ أَظْهَرُ حَزْمًا وَأَقْوَى عَزْمًا مِمَّنْ كَفَنَتُهُ النَّفْسُ جِهَادَهَا، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا.
 وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ. وَإِنْ صَدَّتْهُ الشَّهْوَةُ عَنِ مَرَاشِدِهِ، وَأَضَلَّهُ
 الْحِرْمَانُ عَنِ مَقَاصِدِهِ، فَانْقَادَ لِلطَّبْعِ اللَّثِيمِ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ الْخُلُقُ الدَّمِيمِ، حَتَّى ظَهَرَ حَسَدُهُ وَاشْتَدَّ
 كَمَدُهُ، فَقَدْ بَاءَ بِأَرْبَعِ مَذَامٍ:

* إِحْدَاهُنَّ: حَسْرَاتُ الْحَسَدِ وَسَقَامُ الْجَسَدِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ لِحَسْرَتِهِ انْتِهَاءً، وَلَا يُؤْمَلُ لِسِقَامِهِ شِفَاءً.
 وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: الْحَسَدُ ذَاءُ الْجَسَدِ.

* وَالثَّانِيَةُ: انْخِفَاضُ الْمَنْزِلَةِ وَانْحِطَاطُ الْمَرْتَبَةِ لِانْحِرَافِ النَّاسِ عَنْهُ، وَنُفُورِهِمْ مِنْهُ وَقَدْ قِيلَ فِي مَنْشُورِ
 الْحِكْمِ: الْحَسُودُ لَا يَسُودُ.

* وَالثَّلَاثَةُ: مَفَتْ النَّاسَ لَهُ حَتَّى لَا يَجِدَ فِيهِمْ مُحِبًّا، وَعَدَاوَتُهُمْ لَهُ حَتَّى لَا يَرَى فِيهِمْ وَلِيًّا، فَصِيرُ
 بِالْعَدَاوَةِ مَأْتُورًا، وَبِالْمَقْتِ مَرْجُورًا. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «سُرُّ النَّاسِ مِنْ يُبْغِضُ النَّاسَ
 وَيُبْغِضُوهُ» (١).

* وَالرَّابِعَةُ: إِسْحَاطُ اللَّهِ تَعَالَى فِي مُعَارَضَتِهِ، وَاجْتِنَاءِ الْأَوْزَارِ فِي مُخَالَفَتِهِ، إِذْ لَيْسَ يَرَى قَضَاءَ اللَّهِ

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج مسلم في الإمارة بلفظ «... وشرار أئمتكم الذين يبغضونهم ويبغضونكم...»

عَدْلًا، وَلَا لِنَعْمِهِ مِنَ النَّاسِ أَهْلًا. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ: الْحَاسِدُ مُعْتَاطٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، بِخَيْلٍ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ، طَالِبٌ مَا لَا يَجِدُهُ. وَإِذَا بُلِيَ الْإِنْسَانُ بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ مِنْ حُسَادِ النَّعْمِ وَأَعْدَاءِ الْفَضْلِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ، وَتَوَقَّى مَصَارِعَ كَيْدِهِ، وَتَحَرَّزَ مِنْ غَوَائِلِ حَسَدِهِ، وَأَبْعَدَ عَنِ مُلَابَسَتِهِ. وَإِذْنَانِهِ لِعَضْلِ دَائِهِ، وَإِعْوَاذِ دَوَائِهِ. فَقَدْ قِيلَ: حَاسِدُ النَّعْمَةِ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ ضَرَّ بَطْنِيهِ فَلَا تَأْتِسُ بِقُرْبِهِ، فَإِنَّ قَلْبَ الْأَغْيَانِ صَغْبُ الْمَرَامِ. وَقَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ: أَسَدٌ تُقَارِبُهُ خَيْرٌ مِنْ حَسُودٍ تُرَاقِبُهُ. وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرُّضَى إِلَّا الْحَسُودَ فَإِنَّهُ اغْتَابَنِي
مَا إِنَّ لِي ذَنْبًا إِلَيْهِ عَلَيْهِ عِلْمُهُ إِلَّا تَظَاهَرَ نِعْمَةَ الرَّحْمَنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيهِ إِلَّا ذِلَّتِي وَذَهَابُ أَمْوَالِي وَقَطْعُ لِسَانِي

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُنَّ: الطَّيْرَةُ وَسُوءُ الظَّنِّ، وَالْحَسَدُ. فَإِذَا تَطْيَرَتْ فَلَا تَرْجِعُ، وَإِذَا ظَنَّتْ فَلَا تَتَحَقَّقُ، وَإِذَا حَسَدَتْ فَلَا تَبِغُ»^(٢).



(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٩٠٣، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١٩٠٢.

(٢) ذكره السيوطي في ضعيف الجامع الصغير وانظر ضعيف الجامع ٢٥٢٧.